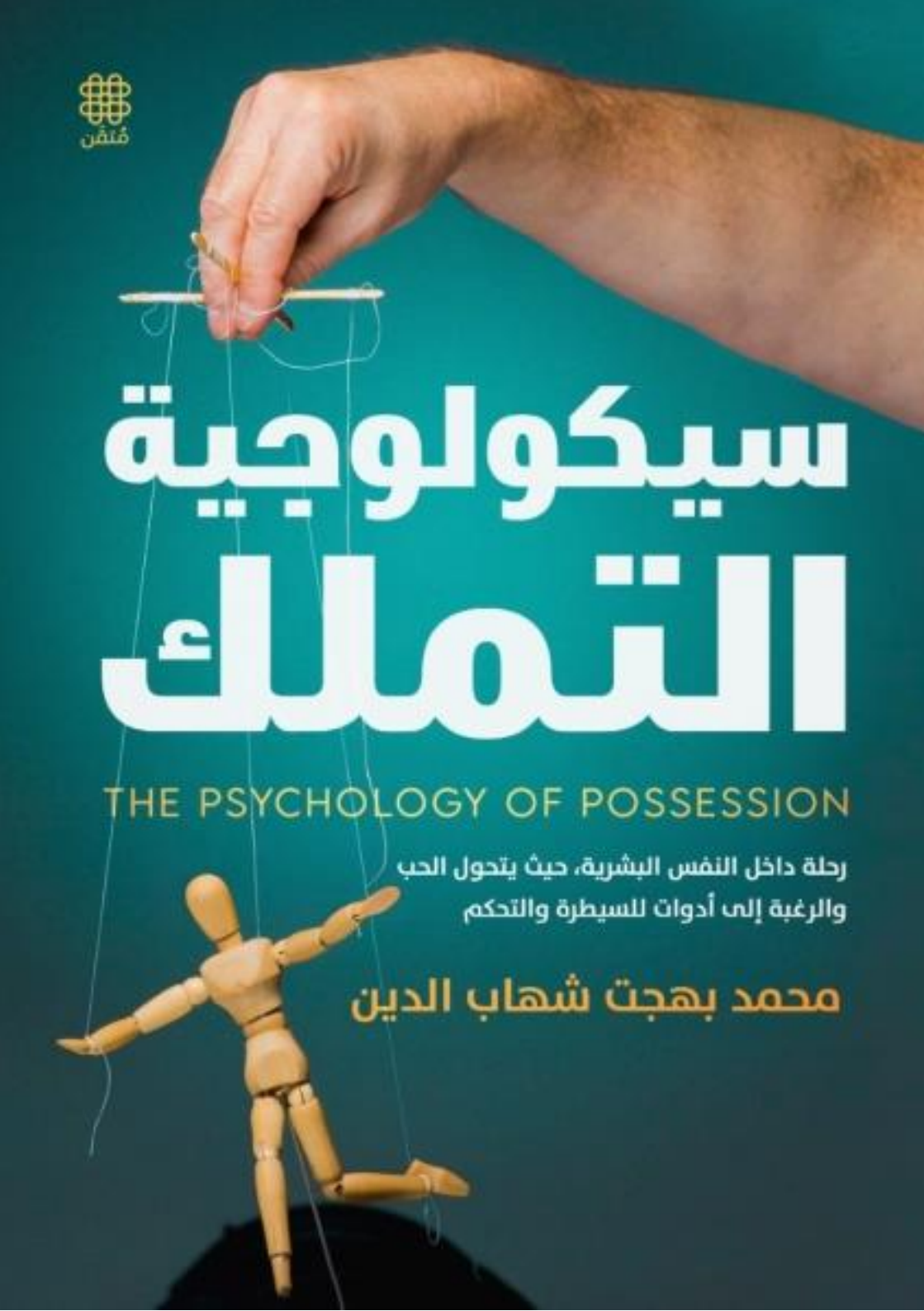

سيكولوجية التملك

THE PSYCHOLOGY OF POSSESSION

رحلة داخل النفس البشرية، حيث يتحول الحب
والرغبة إلى أدوات للسيطرة والتحكم

محمد بهجت شهاب الدين

سيكولوجية التملك

سيكولوجية التملك

محمد بهجت شهاب الدين

رقم الإيداع: 19511 / 2024

الترقيم الدولي: 978-977-8781-75-5

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخا أو تسجيلا أو تخزينا، دون إذن خطي من المؤلف.

جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي بُوكّلاود.

سيكولوجية التملك

من تأليف

محمد بهجت شهاب الدين

١٤٤٦هـ / ٢٠٢٤م

بوكلود

الباسل
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى روح شوبان وموزارت
موسيقاكم منحتني التوازن الضروري للتأمل.

❊ ❊ ❊

"اعرف نفسك"

حكمة يونانية

تمهيد

لكل إنسان فلكه الخاص الذي يدور حوله، يتمثل هذا الفلك في ميوله وإرادته واستقلاله وبنيته وكيميائه الخاصة جدًّا. التملك هو إجبار إنسان على الخروج من فلكه، للدوران في فلك إنسان آخر. وهذا الإجبار يتم إما استغلالًا في البداية ومع الوقت يتحول هذا الاستغلال إلى نزعة سطوة تعمل لذاتها. والإجبار يعني أولًا أن هناك فارق قوة مهول بين المتملك القائم بفعل التملك ومن يتم تملكه؛ لأنه من الطبيعي جدًّا أن يثور أي كائن حي ضد إجباره للعيش خارج فلكه ولحساب إرادة أخرى. كما يعني ثانيًا، عدم قدرة الكائن الضعيف على الدفاع عن ذاته بكل ما يمتلك من غضب وإحساس بالجور؛ لأنه ضعيف "ابن في مواجهة أب، طفل في مواجهة أم تملكية، زوجة في مواجهة زوج له كل الحقوق القانونية التملكية" والعدوانية تعني القضاء عليه في الحال مِمَّا يثير قلقه الكياني الجذري من الفناء. في تلك الحالة تتوجه العدوانية ضد ذاته وذلك هو لب الاكتئاب، احتقار الذات وصب اللوم عليها واجترار الحياة في حسرة وخضوع وشعور عميق بالخسارة والحزن والنقص.

والتملك الأولي تجسد في تملك الرجل للمرأة وتحويلها إلى أداة لإنجاز مشروعه التملكي، المتمثل في صيانة ملكيته الزراعية أو الرعوية، وضمان استمرار هذه الملكية لنسله الذي يمثل بالإضافة إلى المرأة قوى عمل من الضروري أن تحتفظ بالولاء له ومن ثم الدوران في فلكه. استعمل الرجل كل ما يملك من وسائل عنيفة وناعمة لتطويع المرأة_ الزوجة والأم _والأبناء. تنوعت هذه الوسائل من قمع وعنف مباشر إلى قوانين اجتماعية رادعة إلى تهديد بالنبذ والاحتقار إلى شيطنة للمرأة وكيانها ومثلنة للدور الذي حدده لها الرجل وهو خدمة الزوج والأبناء. وتفرع عن تملك الرجل للمرأة كل أنواع التملك الأخرى للأبناء والعمال وبالأحرى تعمقت جذور استغلال الإنسان وتحويله إلى مجرد أداة أو عقبة أو تهديد أو هامش. القائم بفعل التملك في الغالب يستغل وساطته ودوره الطبيعي في الحماية والإشراف، ليبتز الأضعف ويهدده بالنبذ والحرمان وما يستتبع ذلك من قلق جذري عميق على الكيان. هل يمكن تصوير الكلمات التي تعبر عن رعب طفل يهدده الأب أو حتى الأم بالحرمان والنبذ والضرب. إذا كان من الممكن تصوير الموت ورعبه، كذلك الأمر بالنسبة للطفل والمرأة والمواطن الذي يتم إرهابه بالاعتقال والتعذيب والنار إذا لم يرضخ لسلطة المستبد.

إشكالية التملك والاستبداد لا تقتصر كارثيتها على حرمان الإنسان من حاجاته الأساسية من غذاء وملبس وحفظ للنوع، هذه

الحاجات بإمكان التملك توفيرها كنوع من التعزيز للتملك والاستبداد، إذن أين تكمن هذه الكارثية؟

قبل البدء في محاولة الإجابة على هذا التساؤل، من الضروري تحديد المعنى الحقيقي لإنسانية الكائن البشري ومن ثم التفريق بينه وبين الحيوان أو الكائنات الأخرى. في اعتقادي يكمن الفرق الجوهري في وعي وإدراك الإنسان لمحيطه وحاجاته وذاته، وإدراكه لمعاني الإنصاف والعدالة والجور وأيضًا رغبته في السيطرة على واقعه ومصيره ومن الممكن إيجاز كل ذلك في حاجات ماسلو العليا، أقصد تحقيق الذات وتقديرها ذاتيًّا لا بوساطة السلطة. كما أن وجود الكائن البشري من طفولته حتى مماته وسط بناء اجتماعي مسؤول عن رعايته بكل مؤسساته الاجتماعية من أسرة ومدرسة ورفاق وسلطات، كل ذلك من شأنه تعزيز حاجة إنسانية أخرى لا تقل عمقًا عن حاجة تحقيق الذات وهي الحاجة إلى الانتماء والحب والاحتواء. هذه الميول اكتسبها الإنسان تاريخيًّا عبر رحلة تطوره وتفاعله مع الطبيعة.

تكمن خطورة التملك بدرجاته في محاولاته الحثيثة لنفي هذه الحاجات الإنسانية الجوهرية والعميقة من تحقيق وتقدير للذات. وبالتالي قتل فعالية وحيوية الإنسان.

ولتبسيط ذلك في حال توجيه أمر إلى طفل بعدم اللعب في الشارع مثلًا. ليست المشكلة في الأمر بذلك ولكن في طريقة توجيه الأمر

مصحوبًا بالسباب مثلًا أو الإهانة وصولًا للضرب. لن يخرج الطفل للشارع ولكن سيحتقر ذاته بعد عجزه عن الرد بعدوانية على إهانته وتبخيسه وتصغيره ولأنه ضعيف جسديًّا ووجدانيا ويواجه كائنات عملاقة بيدها مصيره من غذاء وأمن يكبت رغبته العدوانية. لا تذهب هذه الرغبة هباء ولا تتبدد، لكنها توجه ضد ذاته بعد أن صارت سلطة المربي داخلية "أنا أعلى" ولكن أيضًا لسبب آخر أكثر جوهرية وهو شعور الطفل بدونية ذاته وهوانها. تلك هي البذور الأولى لتحقير الذات والشعور الأولي بالإهانة والظلم وعدم القدرة على المواجهة والرد. لنتخيل كم الأوامر والسباب والإهانة التي وجهت لهذا الطفل طوال طفولته حتى مراهقته وشبابه داخل كل المؤسسات الاجتماعية من أسرة ومدرسة وغيرها. ولنتخيل كم العدوانية والتحقير الذي يحمله لذاته. لا يستطيع الإنسان تحمل هذه العدوانية المتراكمة، لا بُد لها من منفذ وتنفيس وفي حالة الضعف العمري والجنسي والاقتصادي، لا منفذ أمامه سوى توجيه العدوانية لذاته وتحقيرها ويتمثل ذلك في أعراض الرضوخ وتبلد الإحساس والحزن والاكتئاب بكل أعراضه من فقدان للحيوية والإقبال على الحياة والمبادرة، يتحول الإنسان تدريجيًّا إلى كيان منطفئ. وإذا كانت بنية الإنسان النفسية ضعيفة من الممكن أن يصل به الأمر إلى الانتحار، الذي هو في الأساس القضاء على الذات الهامشية والمحتقرة. على الجانب الآخر يحاول

الإنسان تعويض نقص ذاته وهوانها بتوجيه العدوانية على الأضعف منه في السلم الاجتماعي، الأسري والوظيفي كنوع من تحويل وإسقاط عجزه على غيره ممن هم أضعف منه ويذكرونه بحالته وحقارته. وهذا هو الأساس في العلاقات الاضطهادية المؤسسة على الحسد والحقد والعدوانية الغير مبررة تجاه الآخر، وصولًا إلى الفاشية والعنف الاجتماعي الأسري والزوجي والوظيفي والطائفي والعنصري.

تشن مؤسسات المجتمع التملكي حربًا ضروسًا على ذات إنسانها من أجل تطويعه واستغلاله واستتباعه لصالح أقطاب المجتمع "رجل، أب، رأسمالي، مستبد سياسي، طبقة، طائفة، عصبية". تتبع هذه المؤسسات منهج تطويعي محكم، تستخدم خلاله كل أساليب التحكم في السلوك والوعي والفكر، لإنتاج إنسان فاقد السيطرة على مصيره ووجوده وعقله، غير مدرك لحقوقه، يشعر بالعار من فقره وجنسه وطبقته وعمره ويستمر في محاربة ذاته والدفاع عن وجوده أمام قوى ضخمت من ذاتها على حساب ضعفه ووجوده وحقه الأصيل في تحقيق ذاته والرغبة في تقديرها.

ومؤسسة الأسرة هي الخلية الأولى في البناء الاجتماعي، التي دشنت تملك الإنسان باسم الأبوية والعائلة والوحدة، عبرها يتم تجريف الإنسان منذ ولادته من إمكانية نيل حقه الأصيل في الحياة بحرية وكرامة ووعي وتخطيط وسيطرة على حياته، وعبرها يطبق الأب

الرجل والمرأة الأم التملكية كل الأساليب الحديثة في الترويض والتحكم في السلوك من تنفير وتعزيز وتخويف واقتران شرطي وتحريم ونبذ، ذلك للسيطرة على ذات الطفل، وجعله دائمًا في حالة كفالة وتبعية وخوف عميق من الاستقلال واتخاذ القرار الملائم لحياته وميوله وإرادته.

كما تمارس على الطفلة الأنثى أساليب إرهابية مضاعفة، تمارس ذات الأساليب في بقية مؤسسات المجتمع كالأواني المستطرقة، لتصل أوجها في حالة الاستبداد السياسي العام عندما ينتقل الإنسان من الأسرة إلى المجتمع التملكي الأوسع، ليصير أكثر أهلية وقابلية لمزيد من التطويع والإفقار العقلي والحقوقي والوجودي. تكتمل حلقة محاصرة كيانه وتحويله إلى كائن عصابي يدور حول ذاته ولا يدري ما سبب إحساسه الخانق بالتوتر والقلق والحزن والاكتئاب رغم محاولاته الدؤوبة للتكيف وأيضًا وصوله أحيانًا إلى اقتناص ثروة أو سلطة.

في المجتمع التملكي يعيش الإنسان طوال حياته وهو مشحون بدرجة هائلة من التوتر والخوف والقلق والشعور بعدم الامتلاء والنقص الدائم مهما بلغ من جاه أو سلطة أو ثروة أو حتى تفوق علمي أو مهني. احتقار الذات والشعور بالإهانة الأولية كامن في القاع، لا يستطيع الإنسان الوصول إليه؛ لأن مؤسسات المجتمع السلطوي لا تتوقف أبدًا عن تعزيز شعوره بالهامشية، متبعة في

ذلك آلية متكاملة لتزييف الوعي وتجميد الفكر وتسطيحه، من تحريم ديني وتكفير سياسي وإقصاء عن إدارة الشأن الفردي والاجتماعي والعام. تستنزف الآليات الدفاعية طاقة الإنسان وحيويته وتوقه لتحقيق الذات وتقديرها وإدارة مصيره. تتنوع هذه الآليات من رضوخ وتبلد وتماهي بالمتسلط وتحويل العدوانية على رفاقه المقهورين وتعويض ذاته المحتقرة بالسلطة والثروة والإمساك بذيل المستبد الأسري والسياسي في محاولة لإنقاذ ذاته. لا يدري أنه بذلك يعمق من هدره واستنزافه واستغلال وتهميشه.

الأسرة التملكية في المجتمعات الزراعية والرعوية والمتحولة كما هو حال مجتمعاتنا، هي الخلية الأولى التي يتشكل فيها شكل بقية مؤسسات البناء الاجتماعي من مدرسة ومعمل وجهاز سياسي وإداري. وما يحدث في المؤسسات الأخرى هو انعكاس وتطبيق وتعزيز لشكل العلاقة التملكية داخل الأسرة مع فارق بسيط وهو الشخصنة والعاطفية التي تربط بين أعضاء الأسرة التملكية.

❊❊❊

عن الكتاب

جاء هذا العمل لتسليط الضوء على ظاهرة التملك عمومًا، كونها ظاهرة خاصة بالإنسان. من المستحيل في عالم الكائنات الأخرى أن نعثر مثلًا على كلب أو قط يرهق ذاته لمراقبة كلب آخر، إلا إذا تعلق الأمر بالصراع على مناطق النفوذ. تجاوز الإنسان ذلك بتلقف الطفل حال ولادته، والمحاولة الحثيثة والممنهجة لتدجينه وتشكيله والتحكم في ميوله ورغباته وإرادته ونموه ومصيره، بما يتوافق مع مصالح المالك، سواء تعلق الأمر بالأب أو الأم أو الحاكم أو رب العمل أو المنظومة الاجتماعية التملكية عمومًا. كأن التطور الطبيعي العقلي للإنسان لم يتفتق إلا عن تطوير أساليبه التملكية من استبداد عنيف وناعم وطرق تحكم سلوكية.

ولكن هل اتسقت الذات الإنسانية مع ظاهرة التملك؟ وما أثر ذلك على شخصية المالك ومن تم تملكه؟ وهل تحول التملك إلى غريزة مكتسبة؟ وما دور التملك في انشطار الإنسان إلى أكثر من ذات؟ والصراع الداخلي للإنسان؟ ما علاقة التملك بالعصاب والاكتئاب

والشعور الدائم بالاغتراب عن الذات والمجتمع؟ وما دور التملك في تحويل المرأة إلى مجرد دور اجتماعي وخدمي؟ وما دوره في تمزيق ذات المرأة على وجه الخصوص وحصرها في جسدها وأمومتها واختزالها إما إلى أم مقدسة أو ساحرة شريرة في حال أرادت التعبير عن غضبها؟

وهل بالإمكان مجرد الحلم بسياق تعاوني؟ أم أن السياق التملكي صار واقعًا؟

هذا الكتاب مجرد محاولة لسبر أغوار ظاهرة التملك على المستوى التاريخي والاجتماعي والنفسي والعقلي. ومحاولة للوصول إلى فهم لعمق الظاهرة وتغلغلها في الذات الفردية والاجتماعية.

يتناول الفصل الأول والثاني دينامية التملك داخل الأسرة الأبوية التملكية، وآثار ذلك على أفرادها سيما المرأة والأبناء، وانعكاس ذلك على نفسيتهم وطريقة تعاطيهم مع الحياة ومع الآخر خارج الأسرة. وأيضًا استمرارية دينامية عمل العلاقة الأسرية داخل بقية مؤسسات البناء الاجتماعي الذي يشكل في نهايته بناء أبوي تملكي، استبدادي. كما يتناول الفصل الثاني تحديدًا العلاقة بين سيكولوجية التملك وأزمة المرأة في المجتمع الأبوي التملكي، فضلًا عن تحليل إشكالية علاقة الأمومة التملكية وكيف تحولت الأم تحت ضغط عدوانية الرجل من حارس أمين، سخرته الطبيعة

لتعزيز النمو الذاتي للطفل، إلى حارس لمصالح الأب وتعطيل النمو الذاتي للطفل، لتمرير وتعزيز مصالح الأب، الذكر. لتتحول الأسرة الأبوية إلى حلقة أولى مرتبطة بحلقات أوسع على مستوى السياق التملكي.

كما يتناول الفصل الثالث والرابع والخامس الآثار النفسية الجسيمة التي يراكمها التملك وأبرزها دينامية الانشطار النفسي كآلية دفاعية في مواجهة أقطاب السلطة التملكية. وأيضًا دور التملك في تعزيز عقدة النقص لدى الإنسان وشعوره بالدونية والاحتقار الذاتي وبالتالي الصراع مع الذات. إستراتيجية التملك أساسًا قائمة على تحقير الآخر، تحقير الرجل للمرأة، الأب للأطفال، الرأسمالي للعمال وغيرها من احتقارات شائعة. هذا الاحتقار المستمر للآخر من شأنه مراكمة عدوانية مهولة داخل الذات الإنسانية قابلة للانفجار في أي وقت وحتى هذا الوقت تتسرب الطاقة لمسارب جانبية مجسدة في العنف اللفظي والعاطفي والاجتماعي. يتم تسليط الضوء على العلاقة بين التملك والعنف في فصل منفرد.

يتناول الفصل السادس أيضًا علاقة التملك بالاغتراب النفسي والاجتماعي الممثل في الشعور بالعجز وعدم الأصالة والشعور بأن ثمة ذات أصيلة مفقودة، يتم محاربتها بواسطة السلطة المالكة والأنا الأعلى الداخلي الممثل لتلك السلطات.

إن مجرد كبت دافع أو ميل إنساني طبيعي، كفيل بإنتاج قدر من العدوانية والغضب الناتج عن المنع. فما هو قدر العدوانية التي يراكمها من يتعرض للتملك والقسر والتدجين خلال حياة كاملة. عن دور التملك في العنف المتغلغل في النسيج الاجتماعي والعلاقات البينية، يتناول الفصل الرابع أيضًا علاقة التملك بتراكم العدوانية.

يناقش الفصل السابع إمكانية التحرر على المستوى النفسي والفردي الداخلي سيما لعدم وجود مؤشرات على تغيير جذري في البناء الاجتماعي التملكي الأساس. وهل من اليسر التحرر في سياق مسبب للمرض؟

وهل يستطيع الإنسان المتحرر داخليًّا بعد رحلة وعي وتأمل شاقة الصمود والتكيف في سياق تملكي يحاصر آمال نموه الذاتي وحريته؟

هل من الممكن إعادة تشكيل البناء الاجتماعي ليصير أقل تملكية؟ الفصل الثامن يعرض اتجاه افضل للحركة، وتجسيد ذلك في رؤى بعض رواد الفكر الإنساني النفسي "الفريد آدلر" والاجتماعي "اريك فروم" والفلسفي "برتراند راسل" ورؤية عميد الأدب العربي طه حسين الخاصة بتطوير التعليم.

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

التملك والأسرة والمجتمع

(سيرة إنسانية مشوهة)

١- خصائص الأسرة الأبوية التملكية وجذورها التاريخية والنفسية

عندما يضربك إنسان إما أن ترد له الضربة، وإذا لم تكنْ قادرًا فلتهرب وتبحث لك عن مكان آخر. إلا أن مأساة الإنسان الحقيقية في اعتقادي هي عدم قدرته لا على رد الضربة أو الفرار. بل الاضطرار إلى البقاء بجانب من وجه إليه الضربة وفضلًا عن ذلك تحوله إلى دبلوماسي وسياسي، يحاول بشتى الطرق كبت عدوانيته وإظهار علامات الطاعة والخضوع والحب، هي علامات سطحية تخفي أسفلها شحنات قوية من العدوانية والكراهية، مكبوتة يستنزف الإنسان جهده وطاقته في محاولة إخفائها حتى لا تهلكه. وإذا حدث وخرجت في زلة لسان أو خاطرة أو حلم يشعر بذنب كبير، ويبحث عن التكفير والغفران.

ولكن ما هي القوة الاضطرارية التي تجبر الإنسان على السياسة وكبت العدوانية وعدم الرد أو الفرار كما رفيقه الحيوان؟

إنه الخوف من الفناء والهجر والوحدة والانفصال؛ لأن رد الضربة يوجه لوسيط الحياة بالنسبة له الأم أو الأب أو المربي، الذي يقضي الإنسان فترة طويلة من حياته تحت رحمته وحمايته وتعد من أطول الفترات مقارنة ببقية الكائنات الحية، حيث يولد الإنسان ضعيفًا ويحتاج لفترة رعاية أمومية وأبوية طويلة.

وهل من الممكن من الأساس أن توجه الأم ضربة لابنها وهي التي جاءت إلى الوجود ومن أولوياتها حمايته؟

في السياق التملكي الأمومة والأبوة تحولا من مجرد حماية وإشراف إلى سلطة بفعل خوف الأم أو الأب العميق فضلًا عن حاجة الأب لأفراد الأسرة من أم وأطفال تابعين له في مشروعه الإنتاجي منذ عرف الإنسان العمل المنتج الرعوي والزراعي، وعرف الملكية. رحم الأم يجب أن يكون حصريًّا للرجل المالك، حتى تنتقل الملكية له وحده وأيضًا حتى يحافظ على الأم والأبناء كمساعدين له في مشروعه.

ولماذا عند ظهور الملكية والعمل المشترك الإنتاجي الرعوي والزراعي ظهرت سلطة الآباء القاسية؟

قبل ذلك اعتمد الإنسان على الصيد وجمع الثمار المملوكة للطبيعة، وكلها ثروات طبيعية لا يستطيع ملكيتها، فضلًا عن عدم وجود أي مبرر لاستغلال قوة عمل المرأة والأبناء. بل أن هذا الاستغلال من شأنه هلاكه لمحدودية الثروات الطبيعية المجموعة، والتي يتم صيدها. لم تكنْ قوة عمل الإنسان واستغلاله بهذا القدر من الأهمية مثلما برزت أهميتها مع ظهور الرعي، الزراعة والحاجة إلى فائض للبيع.

وقد فسر أصحاب التحليل المادي للتاريخ هذه الرؤية بموضوعية وعقلانية ربما يكتنفها الكثير من التساؤلات ولكن حتى الآن لم تظهرْ رؤية يمكن أن تضاهيها في اتساقها.

حتى ظهور العمل الإنتاجي المشترك، الملكية الإنتاجية الخاصة واستغلال الإنسان لرفيقه الإنسان كقوة عمل، عاش الإنسان في قبائل صغيرة أو كبيرة جماعية، الهدف من التجمع الأمن والحماية وليس التسلط والاستغلال كما هو شأن الأسرة الأبوية.

كانت الأمومة مجرد حماية وإشراف وحفاظ على الأطفال من الأخطار، وتركهم للحياة عندما يشتد ساعدهم وسط المجتمع البدائي، دون حاجة للاحتفاظ بهم للأبد ومحاولة السيطرة على توجهاتهم وحرية التعبير عن ذواتهم بقوة وتفتح.

الأب الخائف على إنتاجه وعمله ومصيره ومستقبله، حول باستبداده واستغلاله أمومة المرأة من حماية ورعاية وحب غير مشروط، إلى أمومة تملكية استبدادية تشترط قبل أن تلبي، والشروط دائمًا في مصلحة جشع الأب واستغلاله. تماهت المرأة مع سلطة الرجل وعقيدته أي تبنتهم، ولم يكنْ لديها وسيط غير ذلك للحياة ربما لبيولوجية الحمل والرعاية والتربية التي سهلت للرجل تملكه واستغلاله. ورغم أنها المقهور الأول، نقلت قهرها، خوفها إلى الأبناء.

وسط هذه الحلقة المشوهة تأسست العلاقات العائلية واضطر أطرافها الضعفاء من نساء وأطفال إلى الخضوع للأب وعدم رد العدوانية، بل كتمها وكبتها، لأن الأب تحول من سلطة خارجية قاهرة إلى سلطة داخلية، شكلت الضمير وهو ضمير سلطوي داخلي يقف بالمرصاد حتى لبذرة خاطرة من شأنها التشكيك في سلطة الأب الإله المستغل الأول. وارتبطت الأخلاق القويمة بكل ما ينسجم مع طاعة الأب وتعاليمه ومصالحه. ومع الوقت تحولت هذه التعاليم إلى مقدس، تابو لا يمكن التشكيك به. ومقدس يعني إغلاق العقل والإرادة على ما تمت برمجته عليه من تعاليم، والعمل طوال فترة التربية على تعزيز هذه المقدسات بالتكرار والترغيب والترهيب والاستبداد الأمومي الناعم والأبوي القاسي. والأم التابع الأول للرجل ووسيطه الرئيس في تعزيز سلطاته وتثبيتها في عقول الأبناء الغضة.

الخوف الطبيعي من الموت الذي يشارك فيه الإنسان بقية الكائنات الحية تضاعف وأضيف إليه خوف الهجر من الأم الحارسة لسلطات الرجل، وخوف الأب ويطلق عليه في علم النفس خوف الخصاء.

خوف الفناء وخوف الهجر وخوف الخصاء كلها إجابات عن الأسباب التي دعت الإنسان إلى السياسة وكبت العدوانية دون القدرة على الرد أو الفرار.

هذه السيرة الإنسانية التي ربما يتخللها الكثير من الثغرات تلقي بظلال من الشكوك الجذرية على علاقات لطالما تم تقديسها وأقربها العلاقات العائلية من أبوة وأمومة وزواج.

الخوف الإنساني العميق يؤدي إلى الكبت، كبت الشخصية والميول والإرادة والأفكار الأصيلة، والكبت المستمر والمبالغ يؤدي بدوره إلى استنزاف الطاقة والوهن العصبي والجسدي والإحباط والاكتئاب. نعم قامت الحضارة والثقافة على الكبت ولكن هناك قدر يمكن أن يتحمله الإنسان. عندما تكره إنسان وتضطر طوال حياتك أن تظهر له علامات من الطاعة والخضوع و مشاعر الحب الزائفة، تعيش في صراع كبير بين الظاهر والباطن، وتستنزف طاقتك النفسية في النفاق وارتداء الأقنعة ومع الوقت يتحول الخضوع والنفاق والكبت إلى آليات لا شعورية يعيش بها الإنسان دون إرادته. النتيجة حياة كالموت؛ لأن الإنسان تحول فيها إلى ممثل يؤدي الدور المطلوب منه دون أي اعتبار لميوله وأصالته.

يتحول الإنسان إلى أكثر من ذات ليرضي الجميع وذاته الأصيلة تظل مطمورة في الأسفل، وربما ينساها مع فوضى الأدوار، لكنه سيشعر دائمًا بالاغتراب والوحشة وعدم الانتماء إلى مجتمعه وأقرب الناس إليه ماديًّا. وهذا هو المعنى الحقيقي للاغتراب وانفصال الذات عن الموضوع، والمظهر عن الجوهر.

وعندما تصبح الأقنعة ثقيلة على الإنسان وما تم كبته فاق الحد، يصاب الإنسان بوهن جسدي وعصبي ويشعر بضعف عام وقرف من الحياة لا يدري مصدره ولن يدري؛ لأن الأسباب ليست في مدار وعيه، فهي متراكمة ومطمورة في الأعماق. يحاول الإنسان المغترب عن ذاته الحصول على الهدوء بالمهدئات والعمل والاندفاع للهو والنسيان ولكن لا تلبث حالة الاغتراب والشعور بالوحشة أن تستبد به.

الأسرة تحولت إلى أسر والأب صار دولة وحكومة وطبقة ونخبة سياسية مسيطرة شيدت مؤسسات يديرها آباء صغار وكبار من مدارس ومساجد وكنائس وأقسام شرطة وجيش ومحاكم ومجالس نيابية ورؤساء شركات كبرى، وجوه القائمين على هذه المؤسسات تحامي وجه الأب المستبد والمستغل الأول.

يخرج الطفل من الأسرة للمؤسسات الوطن وشوارعه، يتحول إلى مواطن مغترب، يسقط خوفه وخضوعه لأبيه على الضابط والقاضي ورب عمله وأي إنسان يحتل مرتبة أقوى منه. وفي ذات الوقت لا يفوت أي فرصة تلوح له ليتحول إلى مستبد ومستغل ورئيس داخل أي مؤسسة، وتكون تلك فرصته ليعبر عن ذاته ويفرغ لشعوره المفعم بالعدوانية حتى لا ينفجر من الكبت والقهر الذي تعرض له طوال حياته.

إنسان مجتمع الخوف يشعر دائمًا أن هناك من يترصده ويراقبه ويعد عليه خطواته، منتظرًا أي هفوة للقضاء عليه ومعاقبته، لذلك يشعر أنه محور الكون. لديه شعور دائم أن هناك من يضطهده، لذلك فهو دائم التشكيك في الآخرين، دائم كتم انفعالاته، خاصة ما يتعلق منها بالعدوانية تجاه الأعلى مرتبة، مسقطًا إياها على الأدنى منه مرتبة وطبقة وعمرًا ونوعًا.

إنسان مجتمع الخوف يؤمن أن هناك دائمًا من يتآمر ضده في الداخل والخارج، حتى لو كانوا ركاب قطار عام لا يعرفونه شخصيًّا. لقد جعله الأب والزعيم وشيخ القبيلة وربما أمه المتماهية مع هؤلاء في شك دائم أن يكون على خطأ ولذا لا يدري من أين تأتيه الضربة. لقد فقد القدرة على التمييز بين الصراع الوجودي الطبيعي بين الكائنات وبين كونه محور الكون والكل يتآمر عليه.

إنسان مجتمع الخوف علاقاته مشوهه على كل المستويات، الأسرية والعاطفية والسياسية؛ لأنها علاقات مؤسسة على الخوف.

كيف ينظر الطفل إلى والديه؟ ماذا يتوقع منهم؟ ماذا يعتقد عن ذاته؟ ما مدى شعوره بالعجز؟

بالطبع شعوره بالعجز متفاقم ومربك ويصل أيضًا إلى حد الرعب، نظرًا لقدراته المحدودة جسديًّا وعقليًّا، فضلًا عن دهشته أمام

تعقيد وضخامة العالم الخارجي المحيط. هو في مأزق بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

هو يفكر في والديه رغائبيًّا أي بما يتوافق مع رغباته، الأب والأم هنا مجرد دور ووسيط. يسبغ عليهم صفات "الجبروت، القدرة على تغيير الواقع، الرحمة، العطاء بلا حدود، إمكان التقرب والتودد إليهم، الشعور بروابط عاطفية وثيقة تربط الإنسان به، إعلاء شأنهم وتنزيههم عن كل أوجه القصور (حجازي، سيكولوجية الإنسان المهدور)

إلى هنا كل شيء طبيعي جدًّا إذا وضعنا في الاعتبار خوف الطفل ومأزقه الوجودي وضعفه وحداثته.

وكما أن تبعية الطفل للأم طبيعية جدًّا في سنوات ضعفه، فإن توقه الاستقلال الذاتي والاعتماد على النفس، وممارسة حياته بما يتوافق مع أسلوبه وميوله، أمر طبيعي جدًّا، بل وعنيف وربما يعتبر التعريف الأساسي للعدوانية السوية التي ترمي إلى تحقيق الذات.

في المجتمعات السلطوية،

كيف ستكون المقاربة التربوية للوالدين والأسرة عمومًا للخروج بالطفل لمرحلة الاستقلال والتفرد والاعتماد على الذات وهي المرحلة التالية والتي تنمو مع الطفل كلما اشتد عوده؟ هل تصنع

الأسرة التملكية من الطفل إنسانًا حرًّا مستقلًا؟ أم أن مصلحة أقطابها "الأب والأم" الإبقاء على حالة العجز الطفولي مدى الحياة؟ مع الوضع في الاعتبار أن رغبة الطفل في الاستقلال وتحقيق ذاته غريزة أساسية وعنيفة وفي حاجة إلى التعزيز والخروج بها وصاحبها إلى الحياة.

هل من مصلحة الأسرة في سياق تملكي استقلال الأبناء وتعزيز غريزة تحقيق الذات؟

من الضروري بمكان إلقاء الضوء على خصائص الأسرة التملكية أو العشائرية.

في كتابه مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، يعرض د. مصطفى حجازي أبرز خصائص الأسرة التملكية: "من خصائص الحب التملكي التساهل في كل شيء ما عدا الرغبة في الاستقلال والتوجه نحو التفرد، تلك هي الخطيئة التي لا تساهل فيها، لا من قبل الأم ولا من قبل الأسرة عمومًا، أنها العقوق والخيانة"

"يحرص القائمون على أمرها، الممسكون بزمام الأمر فيها على عدم إفلات أي فرد منها"

في كتابه "الاغتراب في الثقافة العربية" يعرض د. حليم بركات أستاذ الاجتماع السوري لبنية الأسرة التملكية: "بنية العائلة العربية بنية أبوية بطريركية يحتل فيها الأب رأس الهرم ويكون

تقسيم العمل وتوزيع الأدوار على أساس الجنس والعمر. الأب هو الذي يتولى دور المنتج المعيل والمالك السيد، ويكون بقية أفراد العائلة عيالًا، ويشغل عالم السلطة والمسؤولية في عالم مزدوج: العالم المخصص للرجال يكافحون فيه لتأمين الحياة، والعالم الخاص داخل البيت، تمارس فيه النساء مهمات منزلية شديدة التنوع.

يتوقع الأب التقليدي من أفراد العائلة الطاعة لمشيئته والتجاوب مع رغباته وتعليماته من دون تساؤل، يملي عليهم من أعلى إلى أسفل أوامره وتعليماته وإرشاداته وتهديداته. وعليهم اللجوء إلى التوسل والاسترحام وهو الرؤوف العادل المضحي بصحته وحياته من أجل خير العائلة، وفي ناحية أخرى فهو قهار، قاس، شديد العقاب، ويكون علينا أن نفسر هذه الظاهرة المشتركة في النظرة إلى الأب وإلى الله في العائلة الأبوية".

مما سبق يتبين أن مصلحة أقطاب الأسرة الأبوية والتملكية، استمرار حالة العجز والقصور لدى أعضائها من نساء وأبناء، ورغم تجاوزهم عمر الطفولة حيث العجز والحاجة طبيعة، يصل الإنسان إلى عمر الشباب وحتى الكهولة وهو يحمل داخله نفس إحساس العجز والحاجة وعدم الأصالة، مما يعمق من اغترابه وبحثه الدائم عن أب، أم أو منقذ يواجه به مصيره وحياته التي تخصه هو وحده.

الأسرة التملكية ليست نبت شيطاني، هي ثمرة مجتمع تملكي، سلطوي، نفس العلاقة التي تربط الأب بأفراد أسرته تحمل ذات خصائص علاقة المعلم بالتلميذ، العامل برب العمل، الحاكم والمحكوم، المواطن والدولة التي يقوم على شأنها أب كبير، يعتقد في شعبه أسرته الخاصة، التي ينتظر منهم الخضوع والامتثال لمشيئته.

الإنسان في المجتمع الأبوي يظل طوال مراحل عمره يردد صدى إحساسه الطفولي بالعجز والحاجة إلى ساحر كالأب أو الأم يحقق له أمنياته ويواجه الحياة نيابة عنه.

يعبر د. حجازي في نفس المؤلف عن حالة هذا الإنسان "يحس أن عليه أن يقعد كالطفل منتظرًا الأمن والهناء والخير الوفير على يد الأب، الزعيم، المنقذ" (حجازي، سيكولوجية الإنسان المقهور)

بالطبع نافيًا أي جهد ذاتي خاص به لمواجهة حياته. "أنه يأمل أن يستيقظ يومًا ما فإذا بالأمور قد انقلبت بصورة مفاجئة وإذا ببطل الخلاص قد برز إلى الوجود وإذا بالواقع قد تحول" (حجازي، سيكولوجية الإنسان المقهور)

ومهما حصل هذا الإنسان من امتيازات من فرط اندماجه وامتثاله إلا أن شعوره بالعجز والاغتراب وعدم الأصالة والقلق الناتج عن فقدانه حريته، أمور ستضعه دائمًا في أزمة وجودية كبرى، وكلما ازداد نكوصه الطفولي تزداد شدة هذه الأزمة.

إذا كانت حالة الاتكال والخضوع آليات للتابعين في الأسرة التملكية، إلا أنها أساليب سلبية لتحقيق الذات العاجزة والمنقوصة ومع الوقت ولأن الإنسان كائن منتج وخلاق فإنه يشعر بثقل الشعور بالفشل الذاتي. وفي سياق تملكي الخيارات ليست متعددة، لذا فالإنسان الضعيف لا يجد من وسيلة لتحقيق ذاته سوى تبني عقيدة الأقوى "الأب، الزعيم، الطبقة السيطرة، المحتل" بل وتبني عدوانيتهم. ينتظر الطفل حتى يشتد عوده ليتقمص دور الأب المهمين والمسيطر، والمواطن عندما يقترب من السلطة حتى في أقل المناصب، يسعى لإذلال من هم أدنى منه في تنكر تام لماضيه ووسطه الاجتماعي الذي ترعرع فيه، بداخله قدر مهول من العدوانية يريد أن يخرجه حتى لا ينفجر بداخله. وكما وصف د. مصطفى حجازي، لا يوجد أصعب من معلم قاس سوى تلميذ أوكل إليه المعلم ضبط الصف.

وهكذا يحمل إنسان المجتمع التملكي النقيضين، الخضوع والاستعلاء، الجبن والإرهاب وذلك حسبما تقتضي الأوضاع.

٢- أب /ابن... حاكم /مواطن

الأسرة التملكية حلقة الاستبداد الأولى...

صارت الأسرة منذ تدشين العهد الزراعي والرعوي التملكي، نواة الإنتاج الأولى، ومنها تفرع باقي مؤسسات المجتمع، من مدرسة

وهيئات تنفيذية، وصولًا إلى الدولة كتجسيد أكبر للمجتمع، في بناء اجتماعي وظيفي تم من خلاله إدارة المجتمع وتبادل وظائفه. لذلك من غير الممكن فهم دينامية المؤسسات الاجتماعية، وطبيعة العلاقات داخلها، دون فهم حقيقي لبنية الأسرة الأبوية التملكية.

في المجتمع الأبوي التملكي، العلاقة بين (طالب/ معلم، رب عمل/ موظف، مدير/ مرؤوس، ضابط/ جندي، حاكم/ رعية، رجل/ امرأة) امتداد للعلاقة الأصلية بين الأب التملكي وأفراد أسرته. وذلك من حيث تعامل الأب مع الطفل والمرأة الزوجة، كأداة أو عبء أو صقل لنرجسيته. ممارسة الاستبداد وآليات التحكم العنيف والناعم في السلوك، من اقتران شرطي وتنفير وتحكم في الحاجات الأساسية والمكتسبة للإنسان، بدأها الأب التملكي لتنضج على مستوى أوسع على يد المستبد السياسي. الاستبداد أساسه، عدم الاعتراف بالآخر واستباحة كيانه وذاته، للاستغلال والاستخدام اللا نهائي لنزعة السطوة لا من أجل تأمين الحياة بل لتعويض النقص. الأب التملكي أنتج باحتراف، أيضًا أساليب هدر العقل والوعي، حتى يفقد الابن والمرأة أي تحكم أو سيطرة على المصير، من خلال تقاليد وأعراف وتراتبية وأخلاق طاعة وخضوع غير قابلة للمساءلة أو الجدل، مستغلًا تفوقه العمري والجسدي، ومستغلًا حاجة الصغار للحماية والأمن والاعتراف والحياة. الأب التملكي أول من شكل سلطة داخلية داخل أفراد أسرته، تعد

عليهم خطواتهم وتحاسبهم، حتى على نواياهم وأفكارهم، مما وضعهم في إشكالية عقدة الذنب الدائمة المنتجة لقلق وخوف فوق الاحتمال، يتحول تلقائيًّا إلى اكتئاب واغتراب وإدانة دائمة للذات وتحقير لها. وتحقير الذات كان اللبنة الأولى لتحقير الآخر الأضعف وكرهه، تعويضًا للذات عن ما أصابها من عجز وشعور بالدونية. الطفل الخاضع خضوع أعمى لأبيه، يلتفت ليصب عدوانيته على أخته أو رفاق لعبه الأصغر منه. كذلك المرأة التي تتعرض لقمع أبوي، تلتفت لأبنائها لتصدر إليهم قدر من العدوانية يتناسب مع كم العدوانية التي استقبلتها. المرأة والطفل والشاب تعرضوا لعملية خصاء ذهني وحياتي ورغائبي من قبل الأب الأول، وصاروا في حالة تهيئة للتعامل مع السلطة خارج الأسرة، سلطة المعلم، ورب العمل والضابط والقاضي والحاكم وهؤلاء بدورهم آباء أوائل.

كما يبرر الأب تملكه برسالة التربية السامية وحماية الأسرة والتضحية بذاته، يبرر المستبد سطوته واستغلاله بشعارات الوطنية والحفاظ على حدود الوطن. وكما يمن الأب على ابنه نعمة الإتيان به إلى الوجود، لحثه على الخضوع وتعزيز عقدة الشعور بالذنب داخله. بالمثل يتعامل المستبد السياسي مع المواطن وكأن المواطن وحقوقه عبء عليه. في حين أن الابن والمواطن لم يطلبا أبدًا الإتيان بهم إلى الوجود.

هناك من الآباء من يحرصون على ديمقراطية الشكل والهيئة، إلا أن الأمر لا يتعدى الشكل، رؤيته هي الأصوب ويتم الأخذ بها بصرف النظر عن الوسيلة. كذلك المستبد السلطوي، الذي مهما استخدم من حيل تشريعية وواجهات ديمقراطية، تبقى رؤيته كما صوره وأخباره التي تملئ المجال العام. وإذا كانت الطاعة هي الفضيلة الكبرى داخل الأسرة التملكية، والنبذ والحرمان للمختلف والمتمرد، كذلك الحال مع المعارض السياسي والفكري المهدد لسلطة المستبد في استغلال لحاجة الإنسان للانتماء وقلق الانفصال لديه. كل صاحب سلطة في المجتمع التملكي تسري به روح الأب التملكي، حتى رؤساء الأحزاب المدنية التي تتخذ لذاتها شعارات ديمقراطية. هذه الروح الأبوية التملكية لم تترك حتى المثقف التنويري والذي ينكشف أمام أول صراع مع السلطة أو التقليد. ليتحول إلى مروج ومسوق للمستبد في حالة خضوع أمام السلطة وتماهي بالمستبد، إذا حصل على منصب سلطوي كمنحة سلطوية.

٣- التملك والمجتمع.

في نفس كتابه "الاغتراب في الثقافة العربية" يؤكد عالم الاجتماع السوري حليم بركات صلة العائلة التملكية بالطبقات الاجتماعية والدين والحركات السياسية، وهي علاقة تتسم بالتكامل والتناقض في آن واحد. "ففي حين تنشئ العائلة أطفالها على ثقافة المجتمع

نجد أن الولاء العائلي قد يتناقض مع الولاء المجتمعي أو الولاء القومي"، "كما أن الأسرة تحاول ترسيخ مكانتها الاجتماعية من خلال إظهار تدينها" (بركات، الاغتراب في الثقافة العربية) ويوضح بشارة دومان كيف حرصت عائلات التجار الكبرى على تنمية مكانتها الدينية ومصاهرة عائلات علماء الدين المعروفة" ولغة التجارة نفسها مشحونة بعبارات دينية كثيرة. وليس من الصعب اكتشاف الصلة بين العائلات الكبرى والنظام السياسي والحكم والاستبداد في المجتمعات الأبوية. القائمون على السلطة التنفيذية لا يجدون غضاضة في مجاملة ذويهم بمناصب كبرى وتعزيز العلاقة مع العائلات الكبرى الأخرى في البلاد. وفي بعض الأحوال يتم قسمة كعكة الوطن بين مجموعة معدودة من العائلات تجمع بينهم مصالح طبقية. لذلك، ليس من الغرابة إطلاقًا أن يطلق الحاكم على ذاته اسم الأب وينادي على الشعب باسم الأبناء المواطنين ولا ينتظر إلا الطاعة والتبجيل والامتثال. وفي المقابل يتعامل المواطن مع الحاكم كأب ويظل دائمًا طفلًا في انتظار أن ينتشله الأب من فقره وتعاسة حياته.

الأسرة التملكية في المجتمعات الزراعية والرعوية والمتحولة، هي الخلية الأولى التي يتشكل فيها شكل بقية مؤسسات البناء الاجتماعي من مدرسة وجهاز سياسي وإداري. وما يحدث في المؤسسات الأخرى انعكاس وتطبيق وتعزيز لشكل العلاقة التملكية

داخل الأسرة مع فارق بسيط وهو الشخصنة والعاطفية التي تربط بين أعضاء الأسرة التملكية.

يتعامل الحاكم مع شعبه كرعية قاصرة يلزمها الأمن والحماية والوصاية مقابل الامتثال والطاعة العمياء والإشارات الدالة على ذلك. والنبذ والتحقير لكل من أراد الخروج عن إرادة الحاكم الأب الأولي. حال كل من هو في موقع سلطة أو إشراف، رؤيته للآخر رؤية تسلطية استغلالية، سواء جاء ذلك بأسلوب ناعم أو عنيف. تتحول السلطة من إشراف ووظيفة تنسيقية إلى هدف سيطرة وتملك وقمع. في المجتمعات التملكية المؤسسات المدنية مجرد واجهة لسلطات تملكية وفئوية متعددة. لا مجال في هذه الأجواء للحديث عن ديمقراطية وانتخابات ومدنية ما دامت الرؤية الاستغلالية والسلطوية للآخر على حالها.

أيضًا تعزز المؤسسات الاجتماعية والتشريعية القيود التي تحاط بها المرأة داخل الأسرة التملكية وتكمل بدورها سطوة الرجل داخل البيت، ليكتمل الحصار على كيان المرأة. تخرج المرأة نعم وتعمل وتكافح مثل الرجل ولكن لا يشفع لها كل ذلك إذا خرجت عن دورها الرئيس، صيانة الرجل وخدمة مشروعه وأسرته بشروطه. ورغم تكسير عظامها وتهشيم كيانها داخل المنزل وخارجه لا تتيح لها المنظومة الاجتماعية مؤسسات تربية مجانية ومتكاملة لتساعدها في تربية وتعليم الأطفال، لتتحمل هي العبء كاملًا، حتى

أنها تنسى كيانها الخاص، وتتحول إلى أداة عمل آلية فقدت الإرادة، فضلًا عن إدراك ذاتها الحرة والأصيلة. المرأة في المجتمعات التملكية كيان منتهي، مصاب بعصاب عميق وكثيف سواء وعت ذلك أم لم تعِ. هي الأكثر اغترابًا وإنهاكًا وإرهاقًا جسديًّا ونفسيًّا. حتى أنها تصدر لأطفالها العصبية والعدوانية والعنف ليرتد ذلك على المجتمع كله في صورة عنف داخلي وخارجي ومشاعر ذنب عميقة وإحباط واكتئاب.

الأسرة التملكية كما ورد وصفها في المجتمعات التملكية، هي التربة الأصلية لمعظم إشكاليات المجتمع من عصبية وهدر وعنف وعنصرية وتمييز وعقد نقص وطبقية ومحسوبية. كما أنها المنتج الأول لأمراض نفسية متسعة وكثيفة على المستوى الفردي والاجتماعي كالعصاب والفصام والهيستريا والعنف الداخلي الموجه إلى الذات والخارجي الموجه إلى الآخر شريك الوطن والآخر الشريك الكوني. وهي المصدر الأول للشعور بالإحباط والاغتراب والرغبة لتدمير الذات أو الهروب سواء بالمخدرات أو الوهم واستنزاف الطاقة عن طريق الحيل الدفاعية المريضة. ولأن الحب يختلط بالتملك والرغبة بالهيمنة عند الأم والأب، فالأسرة التملكية مصدر أولي ورئيس لعقدة الشعور بالذنب لدى الأطفال والشباب؛ لأن الطفل أو الشاب كلما طفت لدى شعوره مشاعر الاستقلال والرفض والتمرد لا يلبث أن يشعر بذنب عميق وخوف من

تابوهات الأب وإرادته، مما يضعه في صراع داخلي عنيف يستنزف طاقته في التكفير وجلد الذات رغم أن الاستقلال والعيش بحرية حق أساسي وأصيل. وهذا الصراع النفسي الداخلي المحتدم والغامض هو السبب الرئيس في لجوء الشاب إلى الهرب من حالة الذعر النفسي بالمخدرات وغيرها من مكيفات وصولًا إلى إنهاء الحياة إذا تجاوزت حدة القلق الاحتمال.

الأسرة التملكية ولأنها تعتمد على الولاء للأب والطاعة والامتثال، تضع اللبنة الأولى لثقافة الواسطة والمحسوبية في المجتمع، وهي الثقافة التي تعلي من شأن الولاء على حساب الإنجاز والكفاءة. المؤيد لسياسات سلطة الحاكم بامتثال وخضوع له أولوية الحصول على جزء أكبر من كعكة الثروة الوطنية، تمامًا كالابن المطيع والخاضع. على عكس المتمرد والمعبر عن ذاته في الجانبين. انتشرت ثقافة الولاء والنفاق والاستزلام في كل مؤسسات المجتمع مِمّا أدى إلى انخفاض قيمة العمل والجهد الذاتي والطموح المؤسس على السعي الاجتهاد لصالح قيم النفاق والانهزامية والكسل.

❊❊❊

الفصل الثاني
التملك والمرأة والطفل

تمهيد:

المرأة هي البحر الذي يصب فيه التملك بكل كثافته، كما أنها المنبع الذي أثار الرجل ليشحذ كل ما أوتي من قوة وطاقة ووسائل ناعمة وعنيفة، لتملكها والسيطرة على جسدها وعقلها ووعيها. وكيف لا والمرأة هذا الكيان الخصب، الأم، المالك الأصلي للأبناء. بعد أن سيطر الرجل على وسائل الإنتاج من أرض ومرعى، لم يتبقَ له سوى تأمين أسرة "يد عاملة" تضمن استمرار حياته وملكيته بل وتحقق له وفرة وأمن اقتصادي. كانت مسألة حياة أو موت بالنسبة للرجل، إما امتداد ملكيته ونسله وأمنه الحياتي أو الفناء، تلك كانت رؤيته المفعمة بالخوف العميق من الطبيعة. إلا أن السيطرة هنا لن تكون لشيء أو حيوان يمكن ترويضه، بل لشريكه الرئيس في الحياة إن لم يكنْ متفوقًا عليه بما أسبغت عليه الطبيعة من أمومة وإنتاج للحياة. لذا كانت هيمنة الرجل عنيفة وشاملة. لم يترك وسيلة للسيطرة على المرأة إلا واستخدمها سواء تعلق الأمر بالعنف المباشر أو القوة الناعمة من مثلنة لقيمة الأمومة وطاعة الرجل أو حتى طقسنة القهر وتحويله إلى احتفال "بالأمومة والزواج"، وصولًا إلى القوانين والأعراف والتهديد بالنبذ. وأيضًا شيطنتها لتبرير السيطرة عليها، فهي القاصر والغاوية. المرأة هي الضامن الرئيس لشفرة الوراثة وملكية الأبناء ولا يمكن انتظار ثقة المرأة وشراكتها الطوعية، فكان العنف والسيطرة بكل الطرق.

تحولت المرأة إلى دور في حياة الرجل، زوجة تصون طاقته الجنسية، وأم لقوى العمل المملوكة للرجل بدورها. لم يعدْ لها إرادة أو رأي أو أي مساحة شخصية داخل المنزل والأسرة سيما إذا كانت عاملة ومشاركة في الإنتاج الاقتصادي العام. تلاحقها أدوارها أينما ذهبت، صيانة الأبناء والزوج دون وجود فرصة لصيانة روحها وعقلها وإرادتها. تعيش المرأة في المجتمع التملكي دون وعي حقيقي بذاتها سوى كونها دور لا كونها إنسان.

أوضحت الناقدة خالدة السعيد أن المرأة العربية كائن بغيره لا بذاته، كما يستدل من تحديد هويتها بكونها زوجة فلان أو أخته، هي أنثى الرجل، هي الأم، هي الزوجة. ولأنها كائن بغيره فلا يمكنها في إطار الأوضاع التقليدية أن تعيش بذاتها، أنها المثال النموذجي للاغتراب.

العائلة التملكية ثمرة هيمنة الرجل الأولية على المرأة وكيانها المستقل جسدًا وفكرًا، رغبة منه في استغلالها، لتطويع الأبناء لصالح مشروعه التملكي الاقتصادي من الأساس، لذا من غير المجدي الحوار حول المرأة وحقوقها دون فهم هذه الجذور التملكية تاريخيًّا واجتماعيًّا. وقد ظهر هذا النمط العلائقي التملكي منذ تحول الإنسان إلى قوة عمل من الممكن استغلالها قهرًا لتحقيق فائض إنتاج. تشيخ المرأة قبل الأوان، تكره جسدها لما فرض عليه من تشريط واختزال.

المرأة في المجتمع التملكي هي المكتئب الأول سواء وعت ذلك أم لا في حال تعريف الاكتئاب

على أنه ارتداد العدوانية المتراكمة تجاه الذات.

الذكر والأنثى في الأسرة التملكية يتم قمعهم وترويضهم وتملكهم من قبل الآباء، وهم لضعفهم الجسدي والعقلي وخوفهم العميق من النبذ والهجر (هذا يعني رعب لا يمكن تصوره لأن الأب والأم وسائط الحياة وتلبية حاجاتهم الأساسية) لا يستطيعون التعبير عن غضبهم وشعورهم العميق بالإهانة والجور وانحطاط المكانة. لا سبيل لديهم سوى كبت الغضب والعدوانية وتوجيهها لذواتهم إما لعجزهم عن الرد أو لخوفهم من عقاب قادم وعنيف. وذلك هو لب الاكتئاب، تبخيس الذات وصب اللوم عليها. يتعرض الابن الذكر والابنة الأنثى لذات العدوانية والعدوانية المضادة ولكن المجال مفتوح غالبًا للذكر مستقبلًا لتبني دور الأب والذكر المهيمن لذلك يتم التسامح معه بخصوص تعبيره عن عنفه وعدوانيته تجاه الأضعف داخل الأسرة وخارجها، كما يتم تهيئته نفسيًّا للشعور بفوقيته. نستطيع تلمس ذلك عندما يضرب الأخ أخته أو يطلب منها القيام بعمل منزلي أو حتى الوصاية عليها وعقابها رغم أنها من الممكن أن تكون متفوقة عليه جسديًّا ونفسيًّا وعقليًّا. لا يعاني الذكر مثل الأنثى من ارتداد العدوانية عليه لانفتاح مجال

التماهي والإسقاط وتفريغ العدوانية لديه رغم احتفاظه بعقدة النقص واحتقار الذات.

يختلف الأمر تمامًا فيما يخص الأنثى التي يتم تهيئتها وترويضها كإسفنجة تمتص غضب الكائن المتفوق الذكري، فتتضاعف العدوانية المتراكمة لديها من الأب والأخ وحتى الأم التي كانت مثلها يومًا ما، واليوم تقوم بدورها كشرطي للرجل ووسيط جوهري لتنفيذ مشروعه التملكي. لا تستطيع الأنثى التعبير عن غضبها أو رد الإساءة وإلا صارت منبوذة اجتماعيًّا. الأنثى السوية في عرف المجتمع التملكي، راضية، مبتسمة، مطيعة مهما كان غليان داخلها وغضبها. وكما أنها لا تستطيع التعبير عن غضبها من غير المباح التعبير عن رغباتها النابعة من إرادتها الحرة. يرتد غضبها تجاه ذاتها ومع الوقت تصاب بجمود غير أصيل وليس من طبيعتها الأصيلة الخلاقة. هذا الجمود هو وسيلتها الوحيدة لعدم استفزاز الأقطاب السلطوية المتربصة لها في كل لفتة لضمان عدم خروجها عن دورها كخادمة مطيعة سواء كانت ابنة أو زوجة أو أم. يتم حرمان المرأة حتى من الآليات الدفاعية التي من الممكن أن تحقق لها بعض التوازن النفسي المؤقت. لذلك يتفاقم الاكتئاب لديها، مِمّا يؤثر بالسلب العميق على طاقاتها الجسدية والنفسية والعقلية. قبل أن تصل المرأة الثلاثين تعاني من مشاكل في الأعصاب والعظام فضلًا عن الوهن الجسدي والنفسي الناتج عن إنهاك

الجسد والأعصاب في تلبية احتياجات الأب والأطفال. رحلة تعذيب تملكي تتعرض لها المرأة ولا يتوقف الرجل عن اتهامها بالقصور والانفعالية والبرود الجنسي والعاطفي الطبيعي وعبر هذا الاتهام يبرر استغلاله لها ويعمق من شعورها بالذنب والعجز والقصور، مِمّا يجعلها في حالة تكيف مع مصيبتها وأيضًا يدفعها للتعلق الرضوخي بالذكر المنقذ في هذا السياق المرعب الذي تحالف أقطابه ضدها.

لم يتوقف المجتمع الأبوي التملكي لحظة عن بث خرافاته فيما يخص انحطاط الجنس الأنثوي سواء على مستوى التنظير أو التشريع أو المجال العام الفكري والتعليمي الأبوي الجذور. وهذا البث مقصود لتعزيز احتقار المرأة لذاتها وإشعارها بالذنب ومن ثم تسهيل استغلالها وتطويعها لأدوارها الخدمية. وتحت تأثير البروباجندا الأبوية تصدق المرأة أحيانًا هذه الخرافات وبالتالي تنشط لتدمير ذاتها وإعادة حلقة القهر والتملك ودعم الرجل في مهمته التملكية.

الخرافات كثيرة منها ما يتعلق بتفرع الأنثى من الرجل، في حين أن العلم أثبت أن الجنين إذا لم يتأثر بالهرمونات الذكورية سيستمر في نموه كأنثى، فضلًا عن أن القضيب الذكري امتداد للبظر الأنثوي وليس العكس. بعد انفتاح المجال في المجتمعات الأخرى بعد الحرب العالمية الأولى أثبتت المرأة جدارتها في كل المجالات

الفكرية والعلمية والصناعية بعد أن قضى الرجال نحبهم في جبهات القتال التي ورطوا أنفسهم فيها. هذا بجانب أمومتها الأصيلة البعيدة طبيعيًّا عن الاستغلال والتطويع كما ابتدع الرجل أبوته الوهمية.

تتضح أكثر مأساوية وضع المرأة في المجتمعات الأبوية التملكية إذا عرفنا أن المرأة كانت قبل العهد الرعوي والزراعي هي الأصل، حتى أن نسب الأبناء كان يخصها وكان باستطاعتها العمل والتربية واختيار الرجل المناسب لها عكس ما هو شائع عن عدوانية الرجل البدائي واغتصابه للمرأة. ربما لهذه الأسباب شعر الرجل بالخوف العميق من المرأة وأعد لها ترسانة من الوسائل والتهديدات والأعراف حتى يستطيع لجم إرادتها تطويعها لحساب ملكيته الزراعية والرعوية وتحويلها إلى عامل في حقله ومشروعه لضمان ولاء الأبناء قوى العمل المستقبلية له، ولم يكنْ ليستطيع ذلك دون تحطيم الكائن الأنثوي رغم أنه في طريقه لتحطيم ذاته لاحقًا.

مأساة المرأة المعاصرة في المجتمع العربي التملكي الأبوي المعاصر أكثر اتساعًا وعمقًا وكثافة، الرجل الذي ضاقت به سبل العيش بعد أن فقد ملكيته الزراعية وتحول إلى أجير أو عامل، اضطر لإفساح المجال للمرأة للعمل الإنتاجي، لمساعدته في تحمل أعباء الحياة، خرجت المرأة لتثبت جدارتها في كل المجالات، ورغم ذلك حرمها المجتمع الأبوي من أقل حقوقها داخل الأسرة وفي المجال

العام. تعمل المرأة وتنتج ولكنها تستمر غير معترف بها خارج إطار رجل، يستغل وضعه القديم في ابتزاز المرأة، لتشقى خارج المنزل في ميادين العمل الشاقة وداخل المنزل في تربية الأطفال ورعايتهم سيما أن الدولة تخلت عن دعمها التعليمي والصحي الحكومي، لتتحمل المرأة بالإضافة إلى ذلك عبء تعليم الأطفال في المنزل ورعايتهم الصحية.

من بإمكانه تحمل كل ذلك؟ وكيف تصمد المرأة جسديًّا ونفسيًّا وعصبيًّا تحت هذا الضغط المهول فضلًا عن تهديدها بالنبذ والهجر إذا عبرت عن تمردها أو غضبها؟

المرأة تضحي بذاتها اضطرارًا وإجبارًا، لا يتعلق الأمر بالأمومة أو نزعة نكران ذات داخل المرأة. الأمومة في المجتمعات البدائية والحديثة المتقدمة كانت مدعومة بالطبيعة ورعاية الدولة وقوانينها لذا لم تكنْ لتتعارض مع استقلال المرأة وقوتها وإرادتها.

شوه المجتمع الأبوي المرأة نفسيًّا وجسديًّا وحولها إلى دور تنجزه بعصبية واكتئاب وكراهية لذاتها ومن حولها وجمود اتقائي. كما شوه هذا المجتمع مفهوم الأمومة كدفء ورعاية وحب دون شروط رغم احتفالية عيد الأم والتي لا تخرج عن كونها طقس يختزل المرأة كدور خدمي ويدعو المجتمع والمرأة ذاتها للاحتفال به، لذا يعتبر هذا الطقس أداة ترويض وتحكم ناعم بتحويله التملك والهدر إلى مناسبة احتفالية تعزيزية. هل يعوض هذا الاحتفال المرأة عن كل

ما لحقها من أذى؟ وهل يمكن الاعتداد بجديته ويتوازى معه لحظيًّا التعذيب الممنهج منذ ولادتها حتى مماتها؟ وهل تتوقف المرأة الإنسان الكلي الشامل على كونها أم؟

للأسف الشديد تمارس المرأة المعاصرة دورها كأم تحت ضغط شديد وعدوانية متراكمة قبل أمومتها وبعدها فضلًا عن إلزام الرجل لها بتمرير سلطته وتعليماته إلى الأطفال. لذا فبدلًا من ممارسة هذا الدور للأبناء دون شروط، تضطر إلى تهديدهم بالنبذ والهجر والعقاب والعنف أحيانًا إذا لم يرضخوا لتملكهم وقمعهم وسيادة إرادة الأب على إرادتهم. لا تفعل المرأة ذلك بإرادة ووعي؛ لأن الأمومة في الأساس رعاية ومحبة دون شروط وتهديد بالنبذ والهجر. أم الحيوان تقدم له كل الرعاية اللازمة دون شروط حتى يشتد عوده تتركه ليستقل ويشق طريقه بحرية واستقلال. إلا أن المرأة تجد ذاتها ملزمة بفرض سطوتها التي هي في الأساس سطوة الرجل لتعطيل شخصية الأبناء، المستقلة وتكثيف اعتمادهم عليها وتعميق شعورهم بالذنب كلما أرادوا التعبير عن إرادتهم واستقلالهم. هنا تتحول الأمومة إلى قيد في رقبة الأبناء والشعور بالذنب تجاه الأم عميق نظرا لما تمثله من وسيط حياتي وحيد للابن لتلبية متطلباته. من تربة المجتمع الأبوي التملكي تنبت الأمومة المشوهة والتي ستكون حلقة جوهرية في إعادة إنتاج حلقة التملك الأبوي. وهذا ما سيتم تفصيله في الفصل القادم.

الأدوار التي رسمها الأب التملكي للمرأة تستنزف وجودها الخاص وطاقتها النفسية والذهنية والعصبية، من ابنة يتم ترويضها على الخدمة والتضحية بالذات وكبت رغبتها وعدوانيتها، ابنة تذبل قبل الأوان ومن عمق القيود والكبت المفروض عليها تصاب بالجمود حتى تتلافى الضربة التي لا تدري من أين تأتي، هذا الجمود الذي صنعه الرجل ليعود لاحقًا ليتهم المرأة بالبرود العاطفي. تنمو الابنة لتكون الفتاة التي ورغم تفوقها العلمي أحيانًا تعيش تحت ضغط عدم زواجها، مما يجعلها تتمحور حول جسدها وتقلق عليه بطريقة مرضية وتتقن ارتداء أقنعة العفة والبشاشة والمحافظة حتى ترضي عقد نقص الزوج القادم، الذي بدوره سينتقل بها إلى دور الزوجة الخادمة والتابعة لمشروعه الخاص فضلًا عن كونها أسفنجة امتصاص عدوانيته وتعويض عقد نقصه. لتكون هذه الأم التملكية اضطرارًا وعصابًا وتفريغًا لعدوانيتها المتراكمة وأيضًا كوسيلة لإعادة اعتبارها المفقود ولكن هذه المرة تحت عين الرجل وفي إطار سلطته.

خارج هذه الأدوار من الممكن أن تتحول المرأة إلى متمردة سلبية، باستخدام جسدها لكسر إرادة الرجل دون وعي منها أنها بذلك تختزل ذاتها في الجسد الذي حبسه الرجل داخلها. ولكن هل ترك لها المجتمع أي وسائل أخرى لتحقيق ذاتها سوى الاتجاه المعاكس في تحولها إلى امرأة حامل محافظة تتبنى عقيدة الأب وتنشرها

وتمارس سلطة الوعظ عن طريقها تفرغ عدوانيتها وتعيد اعتبارها ولكنها تعضد بقوة سطوة جلادها وتعيد بالتالي حلقة التملك من جديد.

١- الأمومة المشوهة

"أم تملكية - ابن" العلاقة الأخطر.

في المجتمع التملكي، يتم تحقير المرأة في كل ما يتعلق بالتعبير عن إرادتها ورغبتها، لذا تعاني المرأة من عقدة نقص شديدة، واحتقار شديد لذاتها وما يستتبع ذلك من شعور بالذنب. ولتحقيق ذاتها في المجتمع الأبوي لا تملك من خيارات سوى تبني دور الأم الخادمة المتملكة، أو المرأة المتمحورة حول جسدها والتي تحاول بدورها تملك الرجل المكبوت من نقطة الضعف تلك، وأحيانًا تتحول إلى سلطة قامعة ولكن في إطار أبوي عام. ولكن في كل الأحوال تظل في معاناة من شعور داخلي بالذنب والكره الدفين لجسدها ورغباتها. لا يمكن بأي حال توجيه اللوم لطبيعة المرأة لما وصلت إليه، ولكن المسؤولية يتحملها الرجل الذي خلق السياق المريض الذي لم يحملْ لإنسانة سيما المرأة أي متنفس سوي وصحي لتحقيق الذات.

للأسف الشديد تمارس المرأة المعاصرة دورها كأم تحت ضغط شديد وعدوانية متراكمة قبل أمومتها وبعدها، فضلًا عن إلزام

الرجل لها بتمرير سلطته وتعليماته إلى الأطفال. لذا فبدلًا من ممارسة هذا الدور للأبناء دون شروط، تضطر إلى تهديدهم بالنبذ والهجر والعقاب والعنف أحيانًا إذا لم يرضخوا لتملكهم وقمعهم وسيادة إرادة الأب على إرادتهم. لا تفعل المرأة ذلك بإرادة ووعي؛ لأن الأمومة في الأساس رعاية ومحبة دون شروط وتهديد بالنبذ والهجر. أم الحيوان تقدم له كل الرعاية اللازمة دون شروط حتى يشتد عوده فتتركه ليستقل ويشق طريقه بحرية واستقلال. إلا أن المرأة تجد ذاتها ملزمة بفرض سطوتها التي هي في الأساس سطوة الرجل وذلك لتعطيل شخصية الأبناء المستقلة وتكثيف اعتمادهم عليها وتعميق شعورهم بالذنب كلما أرادوا التعبير عن إرادتهم واستقلالهم. تتحول الأمومة إلى قيد في رقبة الأبناء، كما أن الشعور بالذنب تجاه الأم عميق نظرًا لما تمثله من وسيط حياتي وحيد لتلبية متطلبات الأبناء. من تربة المجتمع الأبوي التملكي تنبت الأمومة المشوهة والتي ستكون حلقة جوهرية في إعادة إنتاج حلقة التملك الأبوي.

تتغذى تملكية الأم في الأسرة الأبوية من تملكية الأب وعدوانيته. الأم بلا وعي تطبق آليتين دفاعيتين للحفاظ على ذاتها أمام قمع الأب. الآلية الأولى هي آلية التماهي بسلطة الأب وتبني عقيدته كوسيلة وحيدة لتحقيق الذات والتي عجزت الأم عن تحقيقها في مجتمع قامع لإنسانيتها، وآلية التماهي دفاعية مثلما الطفل

الخائف من الشبح والذي يمثل دور الشبح ليخيف أخيه الأصغر أو أخته وبذلك يتغلب على قلقه. كذلك الأم التي تشربت قمع اجتماعي فوق الطاقة منذ طفولتها، تتبنى إرهاب الرجل لتسقطه على أطفالها. والإسقاط هو الآلية الدفاعية الأخرى التي تمارسها الأم التملكية دون وعي وذلك كمحاولة لدرء خطر مواجهة ذاتها الهشة والمحتقرة من المجتمع.

الخطير في ممارسة هذه الآليات الدفاعية من الأم أنها تمارس من أول مؤسسة تربوية يحتك بها الطفل بحكم الطبيعة. وتمارس من قبل شخص صنعته الطبيعة كرحم وحصن أمان تجاه طفل ضعيف جسديًا ونفسيًا. هذا من جهة، من جهة آخر الطفل عبر هذه العلاقة الأولية والأساسية يتشرب الطفل القلق والخوف والشعور بالدونية واحتقار الذات وعدم الثقة بالوجود مبكرًا؛ لأن منبع الطمأنينة تحول إلى منبع قلق وتهديد بالنبذ وذلك هو الموت الوجودي بالنسبة للطفل. بالتأكيد تمارس الأم هذا الدور التملكي بحب ودفء عكس الأب، ولكن لذلك أيضًا خطورته؛ لأنه يعمق عقدة شعور الذنب للطفل كلما أراد الاستقلال أو التمرد على المعاملة السيئة وبدلًا من مواجهة الأم لعدوانيتها يلوم ذاته. فعدوانيته تجاه أمه تعني الفناء؛ لأنها ستهجره. يوضع الطفل تحت ضغط نفسي شديد جدًا، ضغط عدوانية الأم، وضغط خوفه من غضبه وعدوانيته تجاه أمه وسيط الحياة لديه. هذا الضغط

المهول يتحول إلى عصبية وتوتر وقلق وطلب دائم للصفح ومحاولات لإثارة الاهتمام.

بالإضافة إلى غرس بذرة العصاب (الشعور المبكر بالدونية والنقص ولوم الذات) لدى الطفل نحن بصدد تشكيل إنسان يتحول تقدير الذات لديه من ذاته وميوله وإرادته إلى السلطة المجسدة هنا في الأم، هذه السلطة والخوف منها ستتحول مع الطفل إلى الأب والمعلم والضابط ومدير العمل وأي آخر يصادفه الطفل يستشعر فيه القوة.

هذه بداية ونهاية انحراف غريزة تقدير الذات من الذات ذاتها إلى السلطة.

في حالة الأم التملكية يحرص الطفل دائمًا على رضاها وعدم إغضابها وسيسحق إرادته الشخصية وميوله إذا تعارضت مع إرادة السلطة الأمومية، والأفدح من ذلك أنه سيشعر باحتقار لكل ما ينبع من إرادته وميوله؛ لأن الأم "السلطة" شيطنت له ذاته. وذلك هو جوهر تشويه اللا شعور، الابن مرهق من المذاكرة حقه الطبيعي والأصيل ولكن مع نظرة الأم المهددة يشعر بالذنب؛ لأنه شعر بضغط طبيعي جدًّا. ينمو الطفل ليتحول إلى فتى منطلق، يشعر بالحب تجاه فتاة، تضغط السلطة الأبوية والأمومية وتهدد، فيحتقر غريزته الأصيلة في الحب والاقتراب من المرأة وهكذا يستمر

صراعه مع لا شعوره بكل ما يحمله ذلك من قلق وتوتر وشعور بالذنب واحتقار للذات. يبدأ الأمر من علاقة مشوهة مع الأم التي بدورها تفرض سلطة الأب بعد أن تماهت معه. والمقصود بانحراف تقدير الذات، أن الإنسان حتى يشعر بالرضا من الضروري أن ينبع هذا الرضا من داخله وإرادته وميوله وانسجامه مع شخصيته لا لمجرد موافقة السلطة أو امتعاضها، والجدير بالذكر أن السلطة ليس من مصلحتها أن يشعر الإنسان بالرضا أبدًا ولو حدث وقدرت الأم أو الأب صفة إيجابية فيما يخص مصلحتهم فذلك يتوازي مع تحقير جانب آخر من شخصية الإنسان. لذلك من المهم أن يبحث كل إنسان عن ذاته ويقدرها بعيدًا عن تأثير السلطة. للأسف يبتعد الإنسان عن تقدير ذاته بذاته؛ لأن السلطة في المجتمع التملكي وتبدأ داخل الأسرة مع الأب والأم اللذين يستخدمان وساطتهم للرعاية في إملاء وفرض إرادتهم ومصلحتهم وفي العموم تتعارض هذه الإرادة مع إرادة الابن؛ لأن المؤسسة من جذورها تملكية واستغلالية.

لذا من السهل تفهم لماذا يحرص إنسان المجتمع التملكي على السعي الدائم لرضا السلطة واستعراض نقاط قوته أمامها، كما أنه في ذات الوقت يحاول الاستعراض أمام رفاقه في المجتمع حتى يستر ما يعتقد أنه حقير داخله. لقد خلقت السلطة الأمومية داخله عقدة نقص مبكرة عندما قدرت جوانب معينة في الطفل

وحقرت جوانب أخرى ليس من الضروري أن تكون حقيرة لكنها فقط تتعارض مع إرادة الأب والأم وذلك منشأ عقدة النقص واحتقار الذات. يستمر الطفل في حياته وداخله جرح نرجسي وجوانب محتقرة من شخصيته يشعر بالتهديد؛ لأنه يحملها والتهديد هنا يمليه ضميره الداخلي الذي هو، أساسًا ضمير الأم والأب والسلطة. هذا الضمير السلطوي لا يتوقف عن إرهاب الإنسان في نومه ويقظته وأحلامه، ما يجعله في حالة توتر ورغبة في إرضاء من يعتقد أنه سلطة والتمويه للآخر المكافئ له أنه طاهر الذيل رغم أن هذا الآخر لا يبالي به.

فلنفترض أن أم جلست مع ابنها لحل مسألة رياضيات، وعجز الطفل لقدراته المحدودة عن حلها، فنهرته الأم واتهمته بالغباء والبلادة.

لن يلوم الطفل الأم ولن يصدق أن قدراته محدودة، بل يتوهم أن هناك جانب من شخصيته بليد ويظل يشعر بالاحتقار تجاه هذا الجانب. وسيحرص طوال حياته أن يرضى عنه مدرس الرياضيات والأم، وعندما يقابل رفاقه في المدرسة سيستعرض أمامهم قدراته في الرياضيات بل سيتهمهم بالغباء ليبعد عن ذاته تهمة الغباء والبلادة. رغم أن الأمر لا يتعلق من البداية بغباء ولكن ضعف طبيعي للقدرات. يعيش إنسان المجتمع التملكي في حياته بذات منهجية الاستعراض أمام السلطة والآخر، يصب ذلك بالتأكيد في

مصلحة الأقطاب السلطوية في المجتمع سواء الطبقية والجنسية والاقتصادية. الطفل الذي تربي بهذه الطريقة المنحرفة لتقدير الذات يسلك ذات التوجه مع معلمه السلطوي في المدرسة وغيرهم من سلطات في العمل والفضاء المدني وصولًا إلى المستبد السياسي. ليت الأمر يتوقف على التمويه لستر تهمة البلادة ولكن إنسان المجتمع الأبوي يتم احتقاره لفقره وضعفه وإحساسه وجنسه وكلها أمور لا تستدعي الاحتقار أبدًا وليست بعار من الأساس، لكنها كذلك في نظر المتسلط الأب، الرجل، المالك، صاحب السلطة ورأس المال، ومن مصلحة هذا الأب أن يعيش إنسان مجتمعه تحت ضغط احتقاره لذاته ليسهل تطويعه واستغلاله.

نفاق إنسان المجتمع التملكي أساسه ربط تقديره لذاته بإرادة ورؤية السلطة، كذلك التضرع والاسترحام والدعاء وطلب الصفح ونيل الرضا. يترافق ذلك مع إسقاط ما يعتقده الإنسان حقيرًا داخله على الآخر ليحرر ذاته من وطأة التهديد والشعور بالذنب وإبعاد التهمة عن ذاته، كالطفل الذي يتهم أخته الصغرى بالجبن وهو يرتعد من داخله. كذلك يبعد إنسان المجتمع التملكي عن ذاته تهم الفقر والغرائزية وحتى الحب متهمًا الآخر بالفقر وعدم العفاف. رغم أصالة هذه التهم لا شعوريًّا وإنسانيًّا. وذلك منبع العلاقات الاضطهادية والعنف في المجتمعات السلطوية.

يستمر شعور إنسان المجتمع التملكي بعدم الرضا عن الذات وعدم الامتلاء الداخلي؛ لأن تقدير ذاته ارتبط مبكرًا بالسلطة والسلطة كما تقدر تحتقر. والسلطة انتقلت من الخارج للداخل، لذا فإحساسه بالقلق والتوتر والاختناق والمطاردة لا يتوقف مهما حقق من أهداف سواء تعلق ذلك بمال أو سلطة أو مكانة مهنية واجتماعية ما دام الشعور بالاحتقار داخليًّا وكامنًا في اللا شعور. طريق التخلص من التوتر والاغتراب لا يكون في الاستعراض والسعي المحموم بل مزيد من التأمل لإعادة اعتبار الذات داخليًّا بمنأى عن السلطة التي يتوجب قتلها داخليًّا. ولذلك وقفة في الفصل الأخير والحلول الفردية في سبيل مجتمع لا تملكي.

ونعود إلى البداية علاقة أم تملكية بابن تحت وطأة سلطة أبوية قامعة داخل الأسرة الأبوية.

٢- تزييف وعي المرأة.

الآنسة خلود ممثلة مغمورة، حسابها على الفاسبوك مفعم بصور قد تبدو متناقضة، ذلك لمن يرى الأمور من الخارج دون عمق تحليلي. صورة تظهر فيها فاتنة بالمعنى الذكوري للكلمة، سواء تعلق الأمر بالطول والمنحنيات والأناقة ودقة حجم المناطق المثيرة والتي تدرك خلود جيدًا معاييرها لدى الرجال. يصاحب ذلك نظراتها التي تأتي أحيانًا جريئة لدرجة التحدي، وأحيانًا تحمل هذه النظرات ملامح الوداعة والشرود. صورة أخرى للآنسة خلود داخل المسجد

بالعباءة السوداء، مصحوبة بحديث نبوي عن الرضا والإيمان بالقضاء، وما يحمله المستقبل من خير. منشورات خلود ذاتية الطبع وتتخذ اتجاهات قد تبدو أيضًا متناقضة. إحدى هذه المنشورات مثلًا يتحدث عن ضرورة فض أي علاقة تسبب الأذى لصاحبها. منشور آخر يعبر عن عمق حاجتها لشخص يقدرها ويثمنها في إشارة ضمنية لحاجاتها الرومانسية لإنسان يشعر بها ويقدرها. الجينز، الحذاء الرياضي، الفساتين القطنية القصيرة مع مكياج كامل، هيئة لفتاة عصرية، منفتحة على كل احتمالات الترويج السلعي، سيما إنها ممثلة مبتدئة (قوة عمل) تبحث عن مخرج يلتقط الجميلات ليحقق من خلالهم الأرباح (رب عمل).

المتابع لصفحتها يعجز عن رسم صورة لهذه الشخصية المتناقضة. إلا أن هذا التناقض طبيعي جدًّا وربما تعاني منه أساسًا هذه الفتاة.

ذلك لأن وعيها بذاتها تشكل عبر الأدوار التي رسمها لها الرجل، وبالتالي لم تستطعْ خلق شخصية مستقلة لذاتها، فضلًا عن جهلها فيما يتعلق بما مارسه عليها السياق التملكي من تدجين وتفتيت للشخصية.

خلود تاهت بين الأدوار التملكية التي حددها لها الرجل. الرجل الأب أرادها زوجة مطيعة ومخلصة ومؤمنة بقدرها التملكي،

فترسبت في لا وعيها هذه الصورة، صورة الفتاة العفيفة، الطاهرة، الحافظة لميثاق الرجل بعدم المخالفة والطاعة وتبني سلطته في خشوع وخضوع داخل البيت. داعبت الآنسة خلود هذا الرجل عبر صورتها في المسجد. هذا الرجل أيضًا يقدس الجمال بمعاييره الخاصة فيما يتعلق بحجم الثدي والأرداف ونعومة الجلد مع نظرات التحدي والخضوع والاعتمادية، وكانت هذه رسائل أرادت تمريرها عبر صور تعبر عن هذه الملامح. نظرة الخضوع تعوض سادية الرجل وسلطويته، أما نظرة التحدي فتزيد لديه جرعة الإثارة والحاجة للتحدي والسيطرة على امرأة قوية لها شخصيتها، عكس زوجته في البيت التي جمدت وصارت مسخ بليد بلا ملامح، رغم أنه (الرجل) كان السبب الأساسي في شقاء هذه الزوجة.

ولكن من هي الآنسة خلود بالضبط ولماذا تحاول بكل جهدها الترويج لصورتها عبر تطبيق الفيسبوك؟

فيما يخص شخصيتها الأصيلة، خلود ذاتها لا تدركها بشكل كلي، السياق يرفض أساسًا هذه الشخصية الأصيلة؛ لأنها تتناقض مع مصالح الرجل المالك. الشخصية الأصيلة واعية، حرة، فعالة، تريد أن تختبر وجودها بما يتوافق مع شخصيتها وإمكانياتها، تريد أن تتعاون مع الآخر بندية ورفقة سوية ومساواة، لا ترضى بالخضوع والاستغلال والتنازل عن كرامتها. بالإضافة إلى ذلك لن يؤرقها أبدًا الترويج لذاتها كدور ما دامت تمتلك كينونتها ومصيرها، وتدرك

بثقة كينونتها في سياق يمنح حرية الحركة وتشكيل الذات المستقلة دون ترويض أو ابتزاز. تلك ملامح أي شخصية سوية وهي ملامح تتنافى بالطبع مع مصالح التملك والسلطة. دجنت السلطة هذه الشخصية الأصيلة، لتتجسد في الآنسة خلود بكل تناقضاتها. هذا القمع للشخصية الأصيلة لم يفنيها، بل كبتها. وكلما أرادت التعبير عن ذاتها، تجلى الشعور بالذنب (نظرتها النادمة بالمسجد). وبعد قمع السياق لذاتها الأصيلة تشرذمت في الأدوار التي أرادها لها الرجل أو أي سلطة. تمحورت حول ذاتها خائفة، صارت تلتمس الحل السحري في فارس الأحلام الذي تعبر عنه خواطرها في تعبير عن الحب الذي يجد معناه في مجرد الأمن من الخوف والبحث عن عائل. لم تتساءل الآنسة خلود عن سر الخوف الذي يتمثل في السلطة وقمعها، قبل أن تبحث عن هذا الحب الزائف. تمحورت خلود حول جسدها حيث تظهر اهتمام فائق به بل وفرحة بنعومته ومقاييسه المثالية، والتي تتوافق مع دور آخر أراده لها الرجل و هو دور الساحرة الجنسية التي تثير لديه ميول العدوانية والخضوع. ربما ينتظر خلود حفل ليلة زفاف أسطوري يوثق فرحتها القصوى بالوصول أخيرًا إلى الغاية التي أرادتها السلطة، لتتماهى مع أدوار جديدة كزوجة وأم. والزوجة الأم تختلف وضعيتها حسب الطبقة الاجتماعية والسياق. الأم في الطبقات الكادحة يتم استلابها اقتصاديًا وجنسيًا ويذبل جسدها وروحها داخل المنزل، حيث

تكتشف شخصية المالك الحقيقية، وخارج المنزل حيث الطحن الحقيقي المتعلق بالتنافس الشرس. أما في الطبقات العليا، تتحول المرأة إلى عارض مثالي لثروات الرجل والعائلة والطبقة وتعوض نقصها الشخصي في العرض المستمر لأحدث الأزياء والممتلكات رغم أن ذلك لا يمكنه التغلب على غليانها الداخلي وشعورها بالاكتئاب الذي تداريه بالمساحيق والابتسامات الصفراء.

الجدير بالذكر أيضًا أن المرأة في السباق التملكي ومن شدة شعورها بالخوف وعدم الأمان الوجودي، وجدت ذاتها دائمًا في وضعية الترويج لذاتها أمام الآخر حتى يرضى بأن تكون وسيلته وسلعته وأمه وزوجته وخادمته.

كممثلة تسعى خلود أيضًا لترويج ذاتها لدى المخرجين (الرجال في الغالب) وبصرف النظر عن كون المخرج رجل أو امراة، فالفيلم الربحي ينبغي أن تكون بطلته امرأة مثيرة، تمتلك مقاييس الجمال كما يريده الرجل حتى لو مثلت لدور أم أو حتى جدة. وحتى لو لم تكن خلود ممثلة وكانت فتاة عادية تبحث عن عمل عادي، فالحاجة ماسة لنساء جميلات للترويج للسلع الاستهلاكية في المعارض والصيدليات والشوارع. والحاجة ماسة أيضًا لعلاقات عامة مثمرة وخصبة داخل الميادين الإنتاجية. هذه الميادين التي تدخر للمرأة دور آخر لا يقل أهمية عن أدوارها كزوجة وأم. وفي المجتمعات التي وصلت ثقافة الربحية فيها للذروة، صار الجسد

سلعة مشروعة و معترف بها في قطاع انتاجي قانوني وهو قطاع الإباحية التي تتنوع بين الدعارة وشركات إنتاج البورنو. على سبيل المثال موقع canal plus الفرنسي لديه قسم لعرض سير حياتية لفتيات البورنو، يتحدثن خلاله بطبيعية شديدة عن فنهن الراقي. الحديث هنا لا يتطرق لكونهن ضحايا مجتمع ربحي استهلاكي، يتاجر بكرامة الإنسان، ولكن عن مدى تماهي المرأة مع هذا الدور التسويقي المرسوم لها.

أما في المجتمعات التملكية والتي ما زالت في طور الأبوية التقليدية، يمكن لأي متمعن عادي، يمتلك حساب على الفيسبوك، أن يكتشف كيف أن المرأة على مدى فترات حياتها، حريصة على توثيق جدارتها بالأدوار التي حددها لها الرجل. الفتاة قبل سن الزواج، تروج لذاتها كزوجة عبر صور تبرز جمالها ومنشورات تعبر عن إيمانها. ولا تهدأ من توتر إثبات جدارتها، يدفعها لذلك شعورها بالخوف العميق وعدم الأمان حال عدم توظيفها في دور تملكي. تدرك المرأة جيدًا أنها مهما عملت أو اجتهدت علميًّا وثقافيًّا ومهنيًّا، لن يشفع لها ذلك ولن يتم الاعتراف بها، ما لم تكن زوجة أو أم أو أي دور حدده لها الرجل. بالطبع تتغير ملامح حياتها بعد الزواج ومع الوقت تظهر منشورات التقشف والزهد وطلب الرحمة والمغفرة. وبعد خيبة أملها في الرجل التملكي والحياة عمومًا، تحاول

البحث عن هذا الأمل فيما بعد الموت دون وعي منها أن الرجل ينتظرها هناك.

ربما تصير خلود ممثلة مشهورة بعد اعتمادها من أقطاب المجتمع الربحي، إلا أنها ستظل أسيرة لمقاييس المنتج والرأسمالي. ولن يكون لها أي قيمة عندما تفقد بريقها وجمالها وتتوقف عن الإثارة وتتحول إلى سلعة بائرة في عرف المجتمع الربحي. ومهما حاولت عن طريق الشد والهرمونات، تجد ذاتها في صراع غير متكافئ مع الطبيعة ومزيد من القلق والاكتئاب الناتج عن شعورها بالاغتراب عن شخصيتها الحقيقية، وبحثها اليائس عن دور حدده لها الرجل، وهذا الدور لن تنسجم معه أبدًا؛ لأنه لا يمثلها، بل يكبتها ويخنقها دون وعي حقيقي منها. وفي حال استمرار عدم وعيها بآليات قمع المجتمع الأبوي التملكي، ستظل هكذا مغتربة، متوترة، نادمة دون معرفة السبب الحقيقي.

بالطبع هناك من النساء من يتحررن داخليًّا، رغم قهر السياق، إلا أن ملامحهن ليست بالوضوح الكافي وسط بريق الأدوار الأنثوية السامية. وليس هناك مجال للشك أن هذه النوعية النادرة من النساء في حال سطوع نجمهن العلمي والمهني والتحرري، لن يسلمن من الإحباط الاجتماعي المحيط واتهامات الذكورية والمعاناة من العزلة وعدم التفهم، وقد يصل الأمر إلى التأثيم والتخوين والقدح في الأخلاق والإنسانية.

٣- الرجل المشوه و المرأة المشوهة في المجتمع التملكي.

يسرد لنا عالم التحليل النفسي بيير داكو في مؤلفه انتصارات التحليل النفسي، قصة مريضة لديه تدعى ماري جان، وهي امرأة راشدة، تعاني من عصاب شديد يتجسد في قلق وتوتر وشعور دائم بالخوف والذنب، وما يترتب على ذلك من توقف لفعالية حياتها نتيجة للاكتئاب والإحباط. والجذور الأولية العصاب تعود لشخصية أم ماري جان السلطوية كسبب مباشر في عصاب الابنة والذي يتجسد في حالة اكتئاب شديد وقلق وشعور دائم بالذنب. أم ماري جان امرأة حادة، قاسية، دائمًا ما تضفي الإثمية وتحرد لأتفه الأمور. تغتاظ كلما حاولت ابنتها الإدلاء برأي شخصي أو إنجاز عمل مستقلًا. ولنتخيل أن هذه الألوان من الإذلال لشخصية ماري جان كانت قد استمرت منذ سنين، ثانية بعد ثانية.

من الممكن استبدال هذه الأم بأب تملكي، ومن الممكن أن يجتمع الاثنان لتملك إنسان واحد. ومن الممكن تخيل أيضًا مواكب من الآباء والأمهات المستبدين والمستبدات. ومن الضروري معرفة أن الاستبداد والتملك يدوم لعقود ربما تكون عمر الضحية.

إنه القمع والقهر والتملك والإخصاء الذي يتعرض له إنسان المجتمع التملكي. بالطبع إنسان هذا المجتمع يتشوه لا شك في ذلك

ولكن ما هي مظاهر هذا التشويه وانعكاساته على الرجل والمرأة والطفل؟

كطفلة، من المؤكد أن رد فعل ماري جان تجاه أمها سوف يتسم بعدوانية شديدة، الأم تمنع تفتح شخصية ابنتها. ولكن هل تستطيع ماري جان التعبير عن تلك العدوانية تجاه كيان أمها الهائل. هذا الكيان الذي خصصته الطبيعة لتلبية حاجاتها الأساسية. تقول ماري جان لذاتها (لن أكون محبوبًا إذا كنت خبيثًا)، تشعر بخوف شديد من إمكانية نبذ الأم لها وهجرها، وذلك هو أقسى ألم من الممكن أن يتعرض له الإنسان. تكبت ماري عدوانيتها وتبذل كل جهدها لتبدو لطيفة أمام الأم، رغم خوفها وعدوانيتها الداخلية. تلك هي الجذور الأولى للعصاب؛ لأن العدوانية المتراكمة تتوجه نحو الذات في صورة مشاعر ذنب هائلة، مشاعر الذنب تلك نجد صورها في مظاهر الخضوع والتضرع لإنسان المجتمع التملكي.

أولًا: الرجل المشوه

الرجل المشوه هو امتداد للطفل المشوه، وفي المجتمعات التملكية الفاصل بين الطفولة والمراهقة والرشد ليس كبيرًا؛ لأن الإنسان يتوقف نموه النفسي بفعل قهره وسد منافذ الاستقلال لديه. وتلك طريقة تربوية خبيثة للاستغلال والاستتباع الدائم على المستوى الأسري والمجتمعي، من الضروري إبقاء الإنسان في مرحلة الطفولة

المبكرة وتعزيز طفالته واعتماديته وقصوره وضيق وعيه، وقمع استقلاله وطاقاته الحيوية الخلاقة، وذلك لتسهيل تملكه واستغلاله في المستقبل.

كل طفل أو إنسان يبحث عن الأمن و يخشى قبل كل شيء فقدان الحب ورعاية أبويه.

في حال قسوة الوالدين، يشعر الإنسان على نحو يرثى له أن الجهتين تنبذانه، ويعتقد في نفسه أن أبواه يعاقبانه؛ لأنه آثم وقذر. حتى لو لم يكنْ هناك أي داعي موضوعي لذلك. يخبرنا داكو طبيب التحليل النفسي الفرنسي، أن المآل شابًا يتضرع من الخوف أمام العالم برمته رجالًا ونساء (يبدأ في التراجع خوفًا، كي لا يكون موضع عقاب، يتسلل دون أن يرى، ويظهر واجهة لا مطعن فيها، يصبح لطيفًا. يخضع ويضع نفسه تحت أبيه، يظهر الخوف من الرجولة. ينبعث الأب مجددًا في كل سلطة، المدرسة، التجهيز، مؤسسات المجتمع، الأساتذة، الضباط) (داكو، انتصارات التحليل النفسي) هكذا يتسع المجال من الخاص حيث الأسرة إلى العام حيث المجتمع. (هذا الرجل يتوارى لدى أدنى تقطيب للسلطة. يصبح منافقًا ودبلوماسيًّا وكذابًا دون أن يدرك ذلك. إذ أن عليه باستمرار لكيلا يشعر أنه آثم أن يطمئن إلى رأي الآخرين العطوف) (داكو، انتصارات التحليل النفسي). يشعر أيضًا إنسان المجتمع التملكي بحساسية شديدة تجاه أي نقد يوجه له. لديه دائمًا

الشعور أن الخطأ عقابه الهجر والنبذ من السلطة والأب والأم. لذلك ينكر ويقاوم نقده بكل ضراوة. الأخلاق بالنسبة لرجل المجتمع التملكي والذي تعرض لقسوة تربوية مجرد قناع لحماية ذاته من الخطر، لذلك لديه ميل للبحث عن التضحية بذاته وعن الألم للتكفير عن إثم غامض. لذلك فهو يميل إلى إضفاء المثالية على تضحيته وإلى تبريرها. رغم أن الأساس خوف من العقاب، حتى دون انتظار لمكافأة. الأمثلة حاضرة بقوة في المجتمعات الأبوية، على سبيل المثال، طالب يقهر ذاته في المذاكرة ليلًا ونهارًا، ويعتقد في قرارة ذاته أنه يفعل ذلك للمستقبل وبناء الوطن دون الاعتراف بالضغط الأسري الذي لا يترك له مجال للراحة والانطلاق. والعامل الذي يعمل طوال النهار دون راحة، حيث العمل والسعي هو المثل الأعلى والفضيلة العظمى في حين أن الأساس رأسمالي يهدد بالتسريح والجوع. المتدين الذي يخشى عقاب النار والجحيم ويبرر تقشفه وعبادته القاسية بالزهد والمثل الربانية العليا التي تمثل أعلى مراتب الإيمان حيث النور والصفاء.

تلك هي الخطوط العامة لملامح شخصية الرجل المشوه في المجتمع التملكي، إلا أن تلك الخطوط ركزت على رد الفعل تجاه السلطة القوية. الرجل تتغير ملامحه النفسية تمامًا عندما يتعامل مع الأضعف منه عمريًّا وسلطويًّا في المجتمع التملكي ليتحول إلى إنسان عدواني، عنيف، تملكي، مستغل. ذلك لأن الإنسان لا

يمكنه تحمل هذا القدر المهول من الشعور بالنقص والعار والعدوانية المتراكمة بداخله والخضوع الدائم والإثمية والتهميش. لديه رغبة مهولة في التعويض والشعور بذاته ولكن بصورة مشوهة وتلك الصورة هي الوسيلة الوحيدة المتاحة له بعد أن فقد كل وسائل الوجود الصحية. لا يملك إلا تبني شخصية الأب والأم والسلطة المستبدة لإكمال مسيرة المجتمع التملكي وإعادة إنتاج التملك. هذا الموظف الذي يتذلل لرئيسه ولا ينقطع عن طلب العفو والرضا والمنحة. بمجرد خروجه من مكتب الرئيس يسحق أول مرؤوس أو مواطن يقابله. ويكرر نفس السيناريو الذي حدث له ولكن بالمقلوب. وبذلك يعوض شعوره بالعار والنقص ويتنكر لحالته الذليلة بإذلال الأضعف. كما أنه ينفذ أوامر الرئيس ويحاكي نسق السلطة والتملك.

وهكذا يكون الحب بالنسبة للرجل المشوه تملكيًّا، نوع من التعويض والتطفل والاستغلال والاعتمادية. فهو يبحث في المرأة عن أمه لتحقق له احتياجاته المادية والمعنوية. هو يريد أن يكون دائمًا محبوبًا حتى مع فقدان القدرة على العطاء والحب. والمفارقة الغريبة أنه في حالة شك دائم كونه جديرًا بالحب. التربية التملكية رسخت بداخله نقصه ودونيته وذلك سبب فشل علاقاته المتعددة في بحثه اليائس عن الحب. وربما يبحث عن إنسانة يعوض من خلالها عقدة نقصه للشعور بالفوقية والسيطرة. وربما يبحث عن

من يعوله ويعتمد عليه كليًّا في حالة اتكالية تامة كحال رجل يبحث عن امرأة قوية لتحل محل أمه السلطوية والقاسية. رجل المجتمع التملكي لديه عقدة نقص مهولة يحاول تعويضها باستعراض مظاهر الرجولة والفحولة ووعود الحماية والرعاية، لذلك فرفض امرأة له، أقسى ضربة من الممكن أن يتلقاها، وأقسى جرح لنرجسيته وغروره. لأنه في تلك الحالة يجد ذاته في مواجهة ضعفه ووحدته وعقابه القديم بالنبذ والهجر والحرمان من أمه القاسية وأبيه الخصاء. وهذا هو السبب في انتشار جرائم القتل المعلنة وغير المعلنة والتي ترتبط بفسخ الارتباطات والعلاقات سيما إذا جاء هذا الرفض من جهة المرأة. يواجه الرجل في الحال عقدة نقصه ودونيته التي ضخمها داخله المجتمع الذكوري، تلك العقدة المرتبطة بفحولته الجنسية وقوته ومحورية وجوده وضرورة حضور امرأة خادم تدور في فلكه. في حال تم التشكيك ولو بالتلميح في تلك الحقوق المكتسبة، يصيب الرجل الجنون، هذا الجنون المرتبط بالخوف العميق والنرجسية المتضخمة بفعل التربية الأبوية. كون الرجل ضعيفًا، حساسًا، مرنًا، فهو جدير بالعقاب في مجتمع أبوي لا يعترف إلا بالقوة والسيطرة. والجدير بالذكر أن تلك القيم الذكورية التي يعوض بها الرجل عقد نقصه، تضربه في مقتل وتصيبه بالوهن والاكتئاب والصراع الداخلي العنيف؛ لأن الإنسان الطبيعي لم يجبل على تمثيل القوة

والسيطرة طوال الوقت، بل في حالة الخطر فقط. الأقرب للإنسان الطبيعي حالة الاسترخاء والليونة والسلام النفسي بعد الحصول على الأمن والقوت. لقد ورط الرجل ذاته بحرصه وريبته وتملكه وتمثيله للقوة والسيطرة. شوه ذاته وشوه كل من يرتبط به سيما المرأة والأطفال. لقد فخخ بتملكيته العلاقات والنفوس والسياق والتاريخ.

ثانيًا: المرأة المشوهة في المجتمع التملكي.

لنتذكر أن المرأة المشوهة، ثمرة رجل مشوه. على المستوى التاريخي، الرجل كان البادئ بالتهديد والتملك والإرهاب والسيطرة لدواعي الاستغلال وحفظ ملكية أفراده. لقد شيطن الرجل كل ما يتعلق بالمرأة والجنس ولم يدرك أنه يشيطن الوجود والحياة ويغلقها في وجهه أولًا. لأن تشويه المرأة بكل ما تمتلك من قوة وتأثير هو تشويه للنشء والمجتمع والقيم والوجود الإنساني.

يصف بيير داكو في ذات المرجع ملامح من المرأة المشوهة في المجتمع التملكي (التوقف عن التفتح النسوي والإخفاق. تتغضن وتجف. تكبت إحساساتها العميقة. تشعر بخوف وإثمية دائمة. الحاجة الدائمة أن يقبلها الآخرون. التعلق. ولادة المازوخية. حرمان الذات من الغذاء والصيام كوسيلة للتوبة وقصاص النفس. البحث عن تدمير جمالهن والقبول والذل) (داكو، انتصارات التحليل النفسي)

كل تلك الملامح بالطبع تجسد توجه عدوانية المرأة تجاه ذاتها، بعد أن أحكم الرجل حصاره على جسدها وعقلها ووعيها وخطاها الحياتية. والمرأة بالطبع كإنسان لا تستطيع تحمل هذا القدر المهول من الاكتئاب والعدوانية الموجهة تجاه الذات، لذلك فهي الأخرى تلجأ للتعويض المرضي بما أتيح لها من وسائل، كأن تتملك الرجل من نقاط ضعفه المجسدة في الكبت الجنسي والاعتمادية والإتكالية. وبذلك فهي تعوض نقصها بالتفنن في الإغراء والسيطرة عن طريق الجسد وتسويق خدماتها الأمومية. أيضًا من سبل تعويض النقص لدى المرأة ممارسة الأمومة كسلطة تملكية امتدادًا لسلطة الرجل وفي حدوده وتجد في ذلك منفس لما تراكم داخلها من عدوانية وغضب مهول يتلقاه الطفل، ليكبت هو الآخر عدوانية، يدخرها لامرأة المستقبل وطفل المستقبل. في الغالب امرأة المجتمع التملكي والتي تعرضت لضغط ذكوري كبير، تكره جسدها حتى لو صارت نجمة إغراء. بل أن الإغراء والتمحور حول الجسد من أعمق أشكال تسليعه ومن ثم تسويقه لجذب الرجل. لا فرق بين حالة الإغراء تلك وحالة امرأة تسوق لذاتها بواسطة التعفف المبالغ فيه.

في حال تطبيق تصنيف موري للشخصية بما تتضمنه من سمة مركزية وأخرى ثانوية. من الممكن استنتاج أن العدوانية الموجهة ضد الذات أكثر شيوعًا لدى المرأة. ذلك أن منافذ تعبيرها عن ذاتها

نادرة في المجتمع الأبوي، لذا فهي الأكثر اكتئابًا وعصابًا والأكثر تبنيًا لآلية الجمود تفاديًا لضربات الرجل والمجتمع التي لا تدري أوانها.

علاقات المرأة لا تتضمن أي نوع من حرية الاختيار فضلًا عن إمكانية إدارة العلاقة أو الخروج منها بكرامة متى أرادت. في المجتمع التملكي هي سلعة يتم بيعها بموجب مهر وعقد يفرض شروطه الرجل مهما وصلت هذه المرأة من مكانة أدبية أو علمية. لذلك فالحب لديها يرتبط بالحماية والبحث عن الأمن بفرصة عثور رجل عليها والرضا بها. الحب لديها يرتبط بالشعور العميق بالضعف والدونية. وهو شعور أسسه الرجل وتبنته المرأة تحت ضغط المجتمع وقوانينه الجائرة. لذا من غير المدهش العثور على امرأة تتعبد بنصوص تجسد عبوديتها وخضوعها، بل وغرسها والفخر بتعليمها. من جهة أخرى هناك من تتبنى نظرة الرجل لها كونها سلعة وأداة للمتعة، لتتمحور حول جسدها وترعاه وتدقق في نعومته ومقاييسه، ومع انحناءات الجسد، إيماءات الاستدراج التي تتضمن الخضوع والشرود المصطنع وأحيانًا القسوة التي تستفز عقدة نقص الرجل الجنسية.

إنسان المجتمع التملكي رجلًا كان أو امرأة، لا يعرف الانتقال السلس بين مراحل النمو، ليصل في نهاية حياته إلى الرشد والحكمة والاستقلال. بل يظل في حالة تثبيت دائم لمرحلة الطفولة المبكرة حيث الاعتمادية التامة والشعور بالضآلة أمام كائنات الأب

والأم التملكيين، والذين يهبون حبهم ورعايتهم بشروط قاسية. ويحرص الآباء والأمهات والرعاة في المجتمعات التملكية على استمرار هذه الحالة من التبعية والطفالة والانغلاق والطاعة ونقص الوعي لدى أبناء المجتمع التملكي، وذلك عبر أساليب تربوية تسلطية يتم تطبيقها داخل الأسرة والمدرسة والفضاء المدني والديني. وهي أساليب ترتبط بالعقاب وإملاء الشروط والتخويف من المستقبل والمصير والاستقلال.

لذا فوعي وانفعالات وذهنية إنسان المجتمع التملكي تجسد وعي وانفعالات وذهنية طفل خائف، يكبت عدوانيته ويقمع نزعات حريته واستقلاله خوفًا من خصاء الآباء.

❊❊❊

الفصل الثالث

التملك وعقدة النقص الإنسانية

من سطوة الطبيعة إلى سطوة الإنسان

تمهيد

معنى التملك جوهريًّا، إجبار إنسان على العيش على مقاس إنسان آخر وبالتالي الصراع مع ذاته دائمًا وإنكارها.

الأمر أساسه رغبة في استغلال الآخر كقوة عمل (العمال والأبناء)، أو كحافظ للملكية (المرأة والأبناء)، وبالتالي وتحت ضغط الخوف المتجذر والواعي من الفناء، يضطر الأقوى إلى إجبار الأضعف عمريًّا وعقليا للعيش وفق طموحاته ومخاوفه.

الأضعف (ابن، امرأة، عامل، مواطن بسيط) يتعايش مع هذه المعضلة الوجودية الصعبة، ولكن على حساب ذاته وصحته النفسية. يتم إنجاز إستراتيجية التملك، في سياق مفعم بالتهديد والتخويف والتطفيل والابتزاز مقابل الرعاية.

الإحساس بالضعف أمام الطبيعة، وحاجة الإنسان للصراع المرير، والحيلة للتعايش والحفاظ على بقائه، أولى مصادر شعوره بالنقص الذي يتحول إلى قدر أمام عسف الطبيعة. هذا الإحساس بالضعف في حد ذاته إهانة للإنسان، ووصم أولي له بانعدام القيمة، وبالتالي سهولة أن يكون فريسة. هذا الإحساس الجذري بانعدام القيمة يشكل المصدر الأول للشعور بالذنب، والشعور باحتقار هذه الذات الضعيفة والحقيرة، والشعور باستحقاقها للنفي و**العقاب والإمعان في استجداء الطبيعة والخضوع لها.**

خوف كياني

قلق مهول

جمود بعد انعدام القدرة على المواجهة أو الفرار.

رضوخ

استسلام

شعور بنقص شديد ودونية وتبخير للذات

شعور عميق بالإحباط والحزن واليأس.

عدواني موجهة تجاه الأضعف

عدوانية داخلية موجهة للذات المبخسة

شعور بالنفور من الوجود والحياة بصفة عامة

تقوقع وحاجة لإخفاء الكيان الهش

التوجس

الإتكالية

التطفل الناتج عن الخوف والارتياب

وذلك هو منبع الشعور الأولي بالذنب والإثم. يبدأ الأمر بخوف شديد، شعور بالحقارة أمام جبروت الطبيعة، وكيانات الأب والأم والمستبدين، صب اللوم على الذات لضعفها وعدم قدرتها على المواجهة، بعد محاولات يائسة للهرب، إيمان ضمني بالاستحقاق للعقاب، في سبيل التخلص من مشاعر الذنب.

هذا الخوف والقلق الكياني الجذري يستمد طاقته من خوف الفناء والموت وتلك هي أصعب أقدار الإنسان.

مهما فعل الإنسان، يصيبه الإحباط؛ لأنه دائمًا تحت تهديد الطبيعة والآخر القوي.

وطالما التهديد حاضر داخليًّا حيث الشعور بالضعف والهشاشة، وخارجيًّا حيث السلطة وتهديدها بالنبذ والانفصال، فالخوف وما يتبعه من حزن ويأس وإحباط حاضر بقوة، مع كل ما ينتجه ذلك من عدوانية موجهة ضد الذات وضد الوجود.

الإنسان في حاجة لمن يطمأنه ويشعره بالأمن قبل أي شيء دون شروط أو تهديد بالنبذ. ذلك هو السبيل الأضمن لتخفيف حدة الخوف من الطبيعة والتقليل من حدة عقدة العار ولوم الذات.

والعكس صحيح، التهديد والحب المشروط يثير معه الجروح الداخلية العميقة والمرتبطة بالخوف الجذري من الفناء والضياع.

تهديد الطبيعة يعادل تهديد سلطة الإنسان. الإنسان المقهور من الطبيعة هو الإنسان الذي يقهر غيره، ومهما وصل حد تسلطه وسيطرته، لا يشعر أبدًا بالرضا؛ لأنه مهدد بالسلطة الأولى والأزلية، سلطة الطبيعة.

الإنسان الواعي بخوفه من عسف الطبيعة، يريد أن يستغل الآخر كقوة عمل، إلا أنه قبل ذلك يريد أن يرضخه ويشعره بالعجز

ليعوض شعوره هو بالضعف أمام المتسلط والطبيعة. لذلك فإن السلطة دائمًا تحتقر، بل ويتحول الأمر إلى لذة انفراجية، لقد غير الإنسان من وضعيته كمقهور مغلوب على أمره إلى قاهر قادر وجبار. تتضاعف هذه اللذة بمقدار الشعور بالخوف والعجز وبقدر ما عايش الإنسان من سيطرة وإذلال وتحكم في مصيره.

بناء على عقدة النقص المشكلة بواسطة الطبيعة، والتي تجعل الإنسان في حالة قلق جذري على كيانه من شروط الطبيعة، لا يمكن توقع شكل سوي من أشكال التعاون بين البشر بشأن تسيير العمل الإنتاجي المشترك، سيما بعد ظهور الرعي والزراعة وميادين الإنتاج التي تحتاج إلى قدر كبير من التعاون والاعتماية المتبادلة.

ليس بالإمكان الجزم بتحقق هذا التعاون في عهود شيوعية سابقة. القلق والخوف الذي صدرته الطبيعة يرجح أن الأمور سارت في اتجاه عصبي، عدواني تجاه الأضعف عمريًّا وجسديًّا وجنسيًّا طبقيًّا. وبالطبع كل ذلك مبرر بحكم الخوف العميق والجذري من الطبيعة والسلطة.

الخوف العميق والشعور الجذري بالنقص سار بالإنسان في اتجاه تملك الآخر بقسوة، ذلك عندما استدعت الحاجة أن يعتمد عليه كقوة عمل "ابن"، أو حامل ملكية "ابن"، أو قوة عمل وحافظ للملكية "زوجة".

سارت الأمور في شكل تبادل منظم ومبرمج ومقدس للقمع وتصدير لعقد النقص والضعف.

وسواء كان الإنسان في موقع ضعف أولي (طفل وابن وزوجة وعامل) أو موقف قوة (زوج، رجل، أب، رأسمالي، مستبد) فهو يحمل بداخله تهديد الطبيعة الأولى، مضافًا إليه تهديد السلطة (أب، أم، أخ كبير، مالك، صاحب نفوذ، حاكم)، بالتالي لا يتوقف شعور الإنسان بالتهديد والخوف العميق، مهما وصل من تفوق في حياته وإمكانياته ونفوذه وسلطانه، بل إن التفوق المؤسس على الهروب من التهديد وعقدة النقص، من الممكن أن يؤدي بالإنسان إلى طريق الصدمة والاكتئاب في حال تعرضه لمرض أو عجز طبيعي، يوقفه عن استعراض تفوقه وتعويض عقدة نقصه وضعفه.حال المدير السلطوي الذي تقاعد، وفقد سلطته التي كان يعوض بها خوفه وشعوره بالنقص، السلطة كانت درعه، وبمجرد تركها، عاد لمواجهة ذاته التي يحتقرها ويشعر بالعار منها حتى بينه وبين نفسه. الخوف والاحتقار للذات يضاعف من نرجسيته وعدوانيته التي ستتوجه ضد الذات بعد إن كانت موجهة إلى المرؤسيين. ستكون هذه العدوانية سبب في أمراض جسدية وعصبية. وتتوقف حياته في انهزامية مريرة أمام الطبيعة، محاولًا تسديد بعض الضربات الطائشة والعشوائية والتي تنتهي بالفناء. عكس الإنسان الذي يحب ذاته ويحترمها ولا يحتاج للتعويض

سواء بالسلطة أو المال، مهما كان وضعه لن يكون عرضة للشعور بالإحباط والاكتئاب، متوافق مع ذاته.

لذلك من الضروري والمهم أن يتقبل الإنسان ضعفه أمام الطبيعة، ولا يتعامل مع الأمر بتحدٍ وعناد يفوق طاقته النفسية. ومن المهم أن يسوس أموره الحياتية دون إدانة لذاته عند كل فشل أو صدمة.

إلا أن الأمور لا تسير بعقلانية من البداية، الانفعال الشديد، الناتج عن الخوف العميق من الفناء يجعل كل حديث عن العقلانية نوع من العبث. يبدو أن عقدة النقص وكل ما يرافقها من خوف وعدوانية وتسلط وقمع، كل ذلك مبرر كرد فعل على عسف الطبيعة وقسوتها. هذا الخوف العاصف والمدرك من الفناء، روح خبيثة وسامة، تضع الإنسان دائمًا في موقف الشفقة لا الإدانة، حتى لو كان في عرف المجتمع التملكي من عتاة المجرمين.

الإنسان غير مسؤول عن حالة الخوف الجنوني على حياته، وليس مسؤولًا عن كم العدوانية المتراكمة بداخله بفعل خوفه البدائي من الموت، بالإضافة إلى خوفه من أقطاب السلطة في المجتمع التملكي من أب وأم وحاكم ومستبد، وما يتعرض له من تهديد بالنبذ والانفصال والعزلة والفقر والجوع والتشرد، في حال تمرد، أو طالب بحقوق ذاته الأصيلة. الأخلاق والقانون والتقييم والمعايير

الإنسانية التملكية، كل ذلك إذا لم يتوازَ مع احترام الإنسان وحريته ليس له أي قيمة تذكر؛ لأن الخوف البدائي والخوف من السلطة في حالة اشتعال وتجدد، والعدوانية تتراكم وتتجدد كل يوم وكل لحظة، حتى تنفجر في شكل سادية مميتة ومدمرة. من الممكن تجسيد ذلك في انفجارات الشباب التحرشية والجنسية، ومعارك الشوارع التي تنفجر لأتفه الأسباب، وحوادث الانتحار، وحالات الاكتئاب الشديد الناتج عن عدوانية موجهة ضد الذات، والحروب بين الأمم والشعوب والأعراق. كما نلمسه في عنف الرياضات، وعنف إدارة الحياة الأسرية، وعنف رغبة الربح والكسب، وسياق المباراة الرأسمالي الربحي الساحق للأضعف.

ربما تتغير الصورة ويختلف معدل الخوف حال تخيل سياق بإمكانه السيطرة على نوازع الخوف الشديد، رغم صعوبة تحقق ذلك في الواقع. التربية المؤسسة على احترام الآخر وعدم إشعاره بالضعف والمهانة ومد اليد للمساعدة وتعليم الاستقلال. كل ذلك بإمكانه تخفيف حدة عقدة النقص لدى الإنسان وتخفيف حدة شعوره بالإهانة أمام الطبيعة وأمام السلطة.

١- تاريخية التملك وعقدة النقص لدى الإنسان..

الخوف وعقدة النقص والإحساس بالوجود وكل تفاصيله من حب وصراع وخلود وملكية وتعاون، معاني مدركة لدى الإنسان عن

بقية الكائنات؛ لأن الإنسان كائن مدرك ومنتبه ولديه ذاكرة طويلة وقصيرة المدى. لذلك كان إحساسه بالخوف أعمق وقلقه من المستقبل كبير ومختلف. قضية الوجود بالنسبة للإنسان موضوع معقد ولا يقتصر على بساطة الغريزة الحيوانية العمياء رغم أنه يشاطر الكائنات الأخرى ذات الغريزة.

الإنسان كائن مدرك لذلك فخوفه عميق، وكائن منتج لذلك فإن اعتماده على غيره كبير. بالإضافة إلى أنه يقضي فترة طويلة من طفولته في حاجة إلى رعاية طويلة وهذا يعمق شعوره بالعجز وحاجته للتعويض عن هذا العجز طوال حياته بسلطويته تجاه الآخر الأضعف عمريًّا وجسديًّا وسلطويًّا. وهذا العجز يجعله يراكم عدوانية مهولة طوال فترة عجزه، تنفجر في فترات سطوته وقوته على شكل نزعات عنف وسادية وتدمير وتلذذ بالسلطة والسطوة وكشكل من تعويض الإحساس بالنقص والعجز.

الرجل الذي يستمتع بالسيطرة على المرأة وإسقاط عقد نقصه عليها في شكل سباب وابتزاز وتهديد عنف، ربما يعوض شعوره بالنقص الذي طالما كرهه أمام أمه أو أبيه الخصاء والمستبد. كذلك الحاكم الطاغية والمستبد، أنه يستمتع بتعذيب الآخرين وابتزازهم وزرع الخوف والقلق داخلهم؛ لأن شعوره بالخوف والعجز والهلع عميق ومتغلغل، كما أن قصته مع الاستبداد كانت أيضًا طويلة، وقد قرر لا شعوريًّا استكمال حياته في تعويض هذا

الشعور بالنقص والعجز. كذلك الأم المسيطرة تعوض شعورها بالعجز في تملك الأطفال وتفريغ عدوانيتها عليهم، هي الأخرى تعوض عقد نقصها وعجزها أمام الرجل الزوج والأب. كل إنسان في المجتمع التملكي يحمل قدرًا من الشعور بالعجز والنقص والعدوانية المتراكمة حسب طبيعته وبنيته وسياقه ومقدار شعوره بالخوف وما تعرض له من تملك واستبداد. كذلك الإنسان في تعامله مع الطبيعة والكائنات الأخرى وإحساسه الساذج بالتفوق والمحورية لتعويض شعوره العميق الواعي بالنقص والعجز. حتى الحب الذي من المفترض أن يمارسه الإنسان مع رفيقه دون شروط أو عقد، تحول إلى جولات من السادية والنرجسية والسيطرة والعنف والعدوان والصفقات. وعي الإنسان العميق بخوفه وإدراكه لخطر المستقبل جعل إحساسه بالوجود ملوث ومعاق ومعقد وأدنى من غريزة الحيوان الذي يعتقد أنه أسمى منه وأعقل.

إبادة الطبيعة سعيًا للربح وحرمان ثلاثة أرباع سكان الأرض من حقوقهم الطبيعية والتعذيب والاستمتاع به والسلطة وعشقها والنزعة التدميرية، الثمار الشيطانية للوعي بالخوف وتعويض الشعور بالنقص والعجز.

لا مجال للتقييم وإصدار أحكام أخلاقية على أشخاص بعينهم أو شعوب أو أعراق، كل إنسان في المجتمع التملكي، يحمل بذور الوعي

بالخوف والعجز والنقص، ويأتي التعويض بمقدار تجربة كل إنسان مع الخوف والاستغلال والتملك وما تعرض له من عنف وإرهاب وحسب بنيته النفسية وسياقه.

لذلك فالأمر أعمق وأعقد من مجرد إصدار الأحكام والتقييم الأخلاقي الذي أحيانًا يتم أيضًا بغرض الإسقاط والتعويض والسلطوية. الوعظ لا سيما الديني، أكثر أشكال التسلط مراوغة وأكثر أشكال تعويض عقدة النقص خبثًا. الواعظ يحمل في لا شعوره سلطة وإحساس بالسيطرة على الأخر باسم الفضيلة، ربما أيضًا يعاني بعمق من الرذائل التي يدعي الكفاح ضدها، ويستخدم الوعظ كوسيلة إنكار، وإسقاط، وأيضًا كسلطة سيما أن سلطات المجتمعات التملكية في حاجة دائمة إلى أبواق خطابية تجعل المواطنين في حالة شعور دائم بالذنب والتقصير سيما المرأة، والطفل، والعامل، والمواطن البسيط.

الواعظ دائم الهجوم على هؤلاء وشيطنتهم، المرأة خلقت من ضلع الرجل والرجل هو عقلها، هو الأصل، وهي الساحرة التي تحتاج دائمًا إلى السيطرة والترويض والقاصرة التي تحتاج إلى من يتحكم فيها. هي فقط الأم الحافظة للملكية والزوجة الخادمة. أما العامل الفقير هو الكسول عن السعي، رغم أنه لا يتوقف عن العمل ليل نهار، وهو المتواضع في قدراته العقلية وهو السبب في فقره لتقصيره

وقصوره وبعده عن الله. كل ذلك للتمويه عن السبب الحقيقي للفقر والحاجة والذي يتمثل في جشع الرأسمالي واستغلاله وجبنه.

هكذا تحقق مهنة الوعظ منافع كبيرة لأصحاب السلطة والنفوذ، ولها أيضًا مردودها النفسي على الواعظ ذاته حيث تعوض شعوره بالعجز.

الإنسان مهما بلغ من تدميرية وسادية كائن خائف، وضعيته وصراعاته الداخلية في غاية التعقيد والحاجة للتفهم والمعالجة الهادئة والفردية والبطيئة.

الإنسان كائن اجتماعي تاريخي، بحكم ذاكرته وإدراكه ووعيه وما خزنه لا شعوره من تجارب على مدى تاريخه الشخصي وتاريخه العام المرتبط بالعقل الجمعي، وهو تاريخ موغل في القدم، بدأ منذ فارق الإنسان الحيوان القديم، وصار يمتلك وعي بوجوده، وصراعه، وماضيه، ومستقبله الغير مضمون مع طبيعة مفتوحة على آلاف الاحتمالات المهددة لبقائه.

لذلك من غير الممكن فهم الحاضر النفسي للإنسان دون فهم مراحل ماضيه الوجودي وتجربته التاريخية الطويلة مع الطبيعة والوجود للحفاظ على بقائه. وقد ظهر التملك كإستراتيجية بقاء عندما عرف الإنسان الإنتاج والتدجين والعمل المشترك وحاجته لاستغلال الآخر الأضعف لضمان بقائه رغم الصراعات النفسية الداخلية التي كانت الأثر الأعظم لهذه الإستراتيجية.

التملك بهذا المعنى هو رد فعل عدواني، ممنهج، منظم و مدروس لترويض الآخر (طفل، امرأة، عامل، مواطن) وذلك تحت ضغط الخوف العميق من الطبيعة الذي هو في الأساس خوف من الفناء. وقد حدث ذلك نتيجة ظهور متغيرات مادية أدت بالإنسان إلى إدراك ضرورة ترويض الآخر واستغلاله كقوة عمل للحفاظ على ملكيته. هذه المتغيرات تتمثل في اكتشاف الإنسان إمكانية تدجين الحيوان والنبات، وما تفرع منهم من حقول إنتاج تحتاج إلى مزيد من اليد العاملة بل وضمان استمرارية تملكها إما بعقود ملكية الأبوة والأسرة في حالة الأبناء والزوجة، أو عقود انتفاع بشروط المالك في حالة العمال.

قبل ظهور التدجين الممثل في الرعي والزراعة والصناعة والحرف. عاش الإنسان معتمدًا على ما يلتقطه من ثمار الطبيعة نبات وحيوان فيما عرف بمرحلة الجمع والالتقاط. لا توجد وثائق تاريخية موثقة لحالة الإنسان في هذه المرحلة التي استمرت لملايين السنين. ولكن من الممكن تخيل إنسان سلبي أمام الطبيعة، لم يكنْ بحاجة للآخر كقوة عمل بل كعضو في تجمع أو قبيلة للحماية من المفترسات.

إنسان الجمع والالتقاط، كان يعوض نقصه وخوفه فقط بإبعاد الآخر المنافس بعيدًا عن منطقة نفوذه، كانت عدوانيته خارجية وصريحة ومباشرة ضد من ينافسه في منطقة نفوذه، صراع على

الثمار في حالة الندرة والجوع الشديد. ربما اتسم هذا الصراع بالعنف الشديد والعدوانية القاتلة التي تتناسب مع الغموض والجهل والخوف العميق من الفناء والموت، ولكن رغم ذلك، لم يكن الإنسان في حاجة لاستنزاف طاقته من أجل ترويض إنسان آخر وتملكه ومراقبته والتحكم في سلوكه بالرسائل العنيفة والناعمة. لم يكنْ للآخر قيمة أساسًا سوى رفقته كجزء من تجمع في مواجهة مفترسات أو إبعاده عن مناطق النفوذ، في الغالب كانت طبيعية الإنسان متجسدة بمثالية في تلك الحقبة وممثلة في فردية ليست بالبرية وغير متصادمة مع الاجتماع. لم يكنْ رأي الآخر يمثل للإنسان أي قيمة، لم تكنْ السلطة الأبوية التي تقيم وتروض وتجعل الذات الإنسانية الحرة دمية في يد الآخر قد ظهرت بعد. لم يكنْ هناك أبوة، كانت الأم تقوم بدورها الطبيعي في الحماية دون شروط أو ابتزاز وعندما يشتد ساعد الطفل الإنسان، ينطلق حرًّا في صراعه مع الطبيعة. وتنطلق هي دون قيد أو رابط أو تقييد لابنها بجانبها. في تلك الحقبة لم ينشطر الإنسان إلى أكثر من ذات. لم يكن في حاجة للصراع مع ذاته لتبني ذات المالك، الأب والأم والأقوى. عاش الإنسان لذاته ومهما كان وجوده صعبًا وغامضًا إلا أنه كان مستقلًا نسبيًّا، وحرًّا نسبيًّا، ولا يعاني من الصراعات الداخلية والعصاب. فقد كان بإمكانه التعبير عن عدوانيته دون حاجة لكبتها أو الفرار إذا ضاق به السياق.

تملك طاقة إنسان آخر وإرادته وكينونته أمر في غاية الإرهاق للمالك والسلطوي، قبل أن يكون مدمرًا لمن يتم تملكه. المالك في حاجة دائمة للتخلي عن راحة ذهنه واستنزاف طاقته في سبيل مراقبة إنسان آخر وترصده، وهو أمر معطل ومقلق ومرهق.

اهتمام الإنسان برفيقه الإنسان لم يكنْ أبدًا لمجرد الحب والرفقة إلا في حالة الأمومة، التي تلوثت هي الأخرى بالصبغة الأبوية. في اللحظة التي أبدى فيها إنسان اهتمامه بالآخر، كان لتملكه واستغلاله (ابن، عامل، أجير، قن، عبد) أو كحافظ للملكية (أم) أو أداة للخدمة (زوجة وأم).استمر الأمر هكذا مع صاحب المصنع والمزرعة والمشروع الربحي وزادت الحاجة لاستغلال الآخر ومعها تطورت الأساليب التربوية للتملك والاستغلال والترويض الناعم، وهناك فروع كاملة من علم النفس وعلوم الإدارة والتنمية البشرية اختصت بهذا الشأن التملكي والاستغلالي تحت شعارات علمية وإنسانية ونفسية والأمر من جذوره استغلال وتملك وابتزاز. مع الوقت والعادة والعمق التاريخي، تحول الاستغلال والتملك إلى ما يشبه الغريزة المكتسبة. لم يعد الإنسان يندهش من أن هناك من يتملكه أو أنه يرغب في تملك الآخر. الأم والأب والحاكم والرأسمالي، سلطات، صارت مع الوقت ضرورة وطبيعة وأيضًا كون الإنسان ابن وزوجة وأجير بكل ما يحتمله ذلك من استغلال وترويض وقمع للحرية.

نزعة التملك والملكية كانت نتاج الخوف من الفناء سيما في وقت الندرة وزيادة السكان وكانت وسيلة الإنسان وإستراتيجيته للحفاظ على وجوده في طبيعة قاسية، غامضة. ملكية الأرض والإنسان ووسائل الإنتاج وقوى العمل. وبدأت رحلة تملكية طويلة استمرت حتى الآن. وخلال تاريخ التملك الذي استمر لآلاف السنين، طور الإنسان أساليبه في ترويض الآخر والسيطرة على إرادته ووعيه وفكره، منذ لحظة ولادته، وبالتدريج، حتى لا يضطر إلى استخدام الأساليب العنيفة طوال الوقت. تنوعت أساليب التحكم في الآخر الضعيف وترويضه من اقتران شرطي، إلى حب مشروط، إلى تدليل، وحرمان، وتعزيز، وتنفير، وتحكم في المثيرات والدوافع للوصول إلى استجابات مبتغاة. وكل ذلك في سبيل قتل إرادة الآخر وتزييف وعيه وفكره وصراعه الخاص مع الطبيعة بما يتناسب مع إمكانياته.

ظهرت النزعة الأبوية وصار الأب الذكر هو محور العلاقات والوجود ومعه فقدت الأمومة خاصيتها الإشرافية الغير مشروطه وتحولت إلى أمومة تملكية تقدم الحب والرعاية بشروط مرتبطة بنزعة الأب التملكية. وتم إسباغ صفات الأب على الإله الذي تحول إلى أنا أعلى داخلي يحاصر الإنسان حتى في أشد لحظاته خصوصية كانوا والأحلام والتفكير الذاتي.

عوض الإنسان ضعفه وخوفه من الطبيعة والآخر السلطوي في استعراض قوته العدوانية التملكية أمام الآخر. والأضعف زاد خوفه وتضاعف وبدلًا من خوفه القدري والمرير من شرور الطبيعة، زاد عليه خوفه من سلطة الآخر (الأب، المالك، الرأسمالي، الزوج) وبالتالي تعمقت عقدة نقصه وضعفه وجرحه النرجسي ومعها شعوره الدائم بالتهديد مهما بلغ وهمه في التفوق والقوة والسيطرة على الطبيعة. واشتعل صراعه الداخلي مع ذاته التي تحولت إلى عار يحاول الإنسان ستره بمظاهر السلطة والقوة والثراء، صار الإنسان يخجل من ذاته حتى في وحدته. أقطاب التملك زرعوا بداخله أنا أعلى مترصد، لا يرحم حتى النوايا. وبدلًا من الهدوء الداخلي، هناك دائمًا ضوضاء مزعجة ومتداخلة من التهديدات والعواقب. وصار عزاء الإنسان الوحيد هو التكفير عن ذنوبه تجاه السلطة إما بالدعاء أو الصلاة أو لوم الذات. ومع ذلك لم يستطع الحصول على هذا العزاء، فرغباته ودوافعه الأصيلة في الحرية والاستقلال، لم تستطع قوى التملك بكل عنفوانها تاريخيتها من قمعها، وذلك لأن الإنسان في أساسه رغبات ودوافع وطاقة في حاجة دائمة للانطلاق.

في هذا السياق الهستيري، المفعم والمشحون بطاقة الخوف والتهديد، لا مجال للحديث عن الحب ومصلحة الآخر والتعاون المشترك والحرية والاستقلال. يبدو أن كل ذرة اهتمام بالآخر وادعاء

محبته تحمل معها قدرًا لا يستهان به من التملك والاستغلال والتقييم والرقابة وتعميق عقدة النقص لديه. ويبدو أيضًا أن المعنى الجوهري والأصيل للحب يتجلى في ترك الآخر وشأنه.

٢- من سطوة الطبيعة إلى سطوة الإنسان.

رغم أن تسلط الإنسان على رفيقه الإنسان، ناتج بالأساس عن تسلط الطبيعة وما رسبته من خوف عميق في النفس الإنسانية من الفناء والألم، مما عمق من عقدة النقص والعجز والعدوانية لديه، سيما أن الإنسان يمتلك جهاز عصبي متطور وعقل متطور ووعي بهذه المأساة الوجودية. رغم ذلك فإن سلطوية الإنسان على رفيقه الإنسان أقسى وأصعب وأكثر تعقيدًا وتشعبًا من سلطوية الطبيعة.

وضعت الطبيعة الإنسان في صراع بقاء واعي ضد الألم والفناء، مما عمق شعوره بالخوف العميق والصدمة أمام قوة لا قبل له بمجابهتها سوى بالسحر والخرافة والاستجداء والتباكي والشعور العميق بالذنب وجلد الذات على ضعفها وهوانها. إلا أن الطبيعة لم تمنع الإنسان من الهرب وقت الخطر، كما أن الطبيعة لم تصادر وتكبت طاقة الإنسان الشاملة (عدوانية، بنائية، جنسية) في سبيل الحفاظ على بقائه بما يتناسب مع إمكانياته ودفاعاته؛ لذلك كان الإنسان ذات واحدة حرة نسبيًّا، ورغم فقر الطبيعة

في بعض البقاع إلا أنها كانت عادلة في الندرة كما الوفرة، الطبيعة لم تميز بين كائن وآخر في العطاء أو الجدب، لذا لم يتعمق شعور الإنسان بالتمييز، رغم إحساسه العميق بغموض الموقف ككل.

قبل انبثاق التملك كمحاولة دفاعية ضد خطر الفناء، لم يعانِ الإنسان الأول من صراع داخلي بين أنا أعلى وذات تشعر بالذنب والتبخيس وصولًا إلى جلد الذات والانتحار. انتفى الصراع النفسي الداخلي أو العصاب الذي يعد العرض الرئيس لحالة الإنسان المهدد حتى في أوقات أمانه النسبي. العصاب جعل الإنسان في حالة تهديد دائم حتى في اللحظات التي ينتفي فيها التهديد، وذلك بعد تحول السلطة الخارجية القامعة إلى سلطة داخلية دائمة المراقبة للإنسان فيما يخص السلوك والنوايا والأفكار. سلطة التملك حريصة على حصار الإنسان طوال الوقت سماعيًّا وبصريًّا ونفسيًّا من خلال التراتيل والوصايا وجلسات الوعظ.

صار صراع الإنسان مع ذاته أقسى من صراعه مع الطبيعة. وتلك هي قسوة وبشاعة التملك، السيطرة على الطاقات والإمكانيات وتبخيس الآخر وترويضه ومصادرة حقوقه التي كفلتها له الطبيعة.

ربما خفت حدة التهديد المادي المباشر (تهديد الحرارة والبرودة وعدوانية المفترسات)، احتمى الإنسان بالمدن والجدران.

طالت حياته، نعمت بشرته. ولكن في المقابل تعمق صراعه مع ذاته الأصيلة ولم يتوقف شعوره بالاكتئاب والاختناق، الناتج عن جهاز مراقبة السلطة الداخلي.

تملك إنسان حر بحد ذاته تحقير له ويتحول الشعور الطبيعي بالنقص لدى الإنسان إلى عقدة نقص بفعل تحقيره ومحاولة الهيمنة على ذاته بكل سبل التحكم السلوكي الناعم منها والعنيف.

يولد الإنسان ولديه شعور طبيعي وعام بالنقص يجعله في حاجة دائمة إلى الإشباع ومع الإشباع ينتهي الشعور ليتجدد. غاية العدوانية الطبيعية الإشباع، إلا أن التملك والهيمنة والقسر من شأنهم تحويل هذا الشعور الطبيعي إلى عقدة.

الأسرة التملكية وعلاقاتها التراتبية في المجتمع السلطوي هي المنتج الرئيس لعقدة النقص لدى أفرادها الضعفاء على مستوى الجنس والعمر. والإنسان الذي يحمل عقدة نقص من طفولته هو مشروع مستبد قادم، لا يخلو إنسان في المجتمعات السلطوية من استبداد ما أو عقدة نقص وتختلف شدة هذه العقدة حسب طبيعة التملك ودرجته. الطفل الذي تعرض لهيمنة وتحكم ورقابة شديدة وتحقير واستصغار وتملك سواء ناعم أو عنيف، لا يمتلك كثير من الخيارات، تتحول لديه العدوانية الطبيعية إلى نزعة هيمنة وسطوة تعمل لذاتها أو من أجل ذاتها. سيتحول مع الوقت إلى

خاضع، يشعر بالذنب لأقل شأن؛ لأن السلطة مزروعة داخله تعد عليه خطواته وتجعله في حالة نقد ذاتي متكرر، يتحول مع الوقت إلى وسواس. والخطيئة في معظم الأحوال لا تتعلق بكونها خطيئة بقدر أنها قانون الأقوى ومصلحة الأقوى. تتجذر عقدة الشعور بالذنب والتي هي في حقيقتها خوف من بطش السلطة الأبوية وقانونها مهما كان هذا القانون جائر وضد طبيعة الأشياء.

تتوازى عقدة النقص وعقدة الشعور بالذنب. وتتحول السلطة من مجرد وسيلة لإدارة الأمور لإشباع حاجات الإنسان إلى غريزة تعمل لذاتها. لا يمارس المستبد السلطة المطلقة ليحقق بها غاية مادية، لو كان الأمر كذلك لتنحي أي مستبد بعد أن يحقق أغراضه المادية، إلا أن الأمر أعقد من ذلك، فالمأساة الإنسانية هي الاستمتاع بالسلطة والسيطرة على الآخر لمجرد الاستمتاع بذلك لتعويض عجز وعقدة نقص نتجت عن تاريخ تملكي غالبًا ما يعود جذوره إلى العلاقة الأولية بالأب والأم وأفراد العائلة التملكية بكل علاقاتها المؤسسة على الهيمنة والتحقير.

الطالب الذي تعرض لتحقير من معلم رياضيات؛ لأنه لم يستطعْ حل مسألة حسابية، بإمكانه أن يكون في المستقبل أعظم عالم رياضيات، ومن الممكن أن يكره الرياضيات ويهرب من سيرتها ويشعر بالخوف وربما العار من التعامل مع هذا المجال. لا فرق هنا بين الحالتين الأعظم والأدنى ما دام المحرك عقدة الشعور

بالنقص. عالم الرياضيات العظيم رغم تفوقه لا يستطيع أن يتعامل مع موهبته وقدراته بهدوء ومتعة ورضا، يشعر أنه في سباق محموم لإثبات أنه الأعظم والأكثر تفوقًا ويتعامل مع رفاقه من نفس الحقل كمنافسين من الضروري سحقهم والتقليل من شأنهم. ما زال طيف المعلم الأول المراقب والمحقر في الذاكرة، ملء الإدراك.

الشعور بالعظمة هو الوجه الآخر للشعور بالدونية. الإنسان الطبيعي لا هو بالعظيم ولا هو بالحقير. إلا أن لعقدة النقص الناتجة عن التحقير الأولي تأثيرها المشوه للذات الإنسانية. الطفل في الأسرة التملكية يتعرض في كل لحظة لتحقير من نوع ما، ولنتخيل كيف ستكون ذاته مستقبلًا.

المعضلة الأساسية لعقدة النقص أنها تخلق العصاب والمرض النفسي العميق؛ لأن الإنسان المصاب بعقدة نقص، يحمل ذاته أضعاف طاقته. ليس المطلوب من الإنسان إطلاقًا إثبات إنه الأكثر قوة لأنه لا يستطيع ذلك بما يحمله من ضعف طبيعي من الضروري الاعتراف به. وهذه الطاقة المستنزفة هي السبب في شعور الإنسان دائمًا بالإحباط وعدم الرضا والوهن العصبي والقلق والتوتر المتكرر والاكتئاب رغم ما يمتلكه من سلطة وثروة وإمكانيات. إنه الركض الدائم دون الوصول لهدف.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع

التملك وتراكم العدوانية

تمهيد

محاولات لتفسير العدوان

تباينت رؤى علماء النفس حول مصدر العدوانية، رغم هذه الاختلافات حول المصدر كان الاتفاق تقريبًا على ضرورة وجود آلية اجتماعية وثقافية للتعامل معها لضمان بقاء البناء الاجتماعي بأقل قدر من العنف.

ويبقى تحدي ترويض العدوانية هو الأخطر والأعظم لكل بناء اجتماعي.

العدوانية من وجهة نظر فرويد، نزوة موت طبيعية وعنيفة تتجه للذات لتفنيها وفي طريقها لذلك تتصارع مع نزوة الحب والحياة.

أنصار هذا الاتجاه بالطبع يؤكدون على خطورة ارتداد العدوانية تجاه الذات على الإنسان. لذلك عندما يواجه الطفل أم تملكية أو أب تملكي يتعرض لهذا الخطر المهول، لن يستطيع بأي حال إخراج عدوانيته تجاههم، فهم وسطاء الحياة بالنسبة له. لا يجد الطفل من سبيل أمامه سوى إضفاء المثالية على الأب والأم وتكريس محبته لهم بصرف النظر عن جدارتهم للمحبة. المحبة هنا وسيلة دفاع لامتصاص عدوانيتهم. إلا أن عدوانية الطفل لا تفنى بل ترتد إليه أشد قوة في صورة احتقار للذات الغير معترف بها من وسطاء الحياة أو معترف بها بشروط. لا يتحمل الطفل بالطبع ارتداد

العدوانية، لا يتحمل قلق جلد الذات والشعور بالنقص. بل إن هذا القلق يضاعف خوفه وبالتالي شحنة العدوانية لديه. يلجأ الطفل إلى حيلة دفاعية أخرى لتخفيف حدة العدوانية المتراكمة لديه وهي تحويل العدوانية إلى الخارج وفي الغالب الأضعف أو مصادر شر يحددها المجتمع تتمثل في الشياطين أو الأقليات وتتعدد هذه المصادر حسب المرحلة العمرية وأيضًا تتضمن المرأة الزوجة الابنة وأحزاب سياسية معارضة للسلطة أو عدو خارجي يزينه الاستبداد. يبدو الآخر في المجتمع التملكي مصدر السوء دائمًا.

تقول بولا هايمن وهي من أتباع ميلاني كلاين: (إنه بسبب ضرورة تحويل الحقد والتدمير وفي المقام الأخير نزوة الموت من الذات إلى الموضوعات نحن بحاجة إلى موضوعات سيئة ونحن نخلقها إذا لم نجدها في متناولنا) (حجازي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)

تملك إنسان يعني حرمانه من التعبير عن عدوانيته بتلقائية مِمّا يضعه أمام خطر تراكم العدوانية وارتدادها تجاه الذات في صورة مشاعر كراهية للذات ومن شدة شحنة العدوانية، يلجأ الإنسان إلى تحويلها إلى أي آخر ضعيف ومعترف به كمصدر سوء، وفي الغالب يكون هذا الآخر الأضعف في السلم التملكي (طفل، ابنة، زوجة، فقير، عامل، مختلف دينيًّا وثقافيًّا). لدرجة تصل إلى إبادة

هذا الآخر وتحقيره والتلذذ بتعذيبه والسيطرة عليه كمحاولة لنفي مشاعر النقص الداخلي.

ربما يتحول الابن الذي تعرض لتملك عنيف وتربية قاسية إلى مستبد، يحاول بكل عنفوان التنكر لتحقيره من قبل أسرته، عن طريق استغلال سلطته السياسية لاستعباد شعبه محاولًا السيطرة عليه بكل وسائل الإرهاب.

يقول أنطونيني (إن هناك في كل الحالات تقريبًا جهدًا لإزاحة العدوانية خارج الذات، بشكل يمكننا من عدم رؤيتها في ذاتنا، يمكننا من التعامي عنها، فاكتشاف الحقد الكامن فينا ظاهرة مولدة للقلق، أما اكتشاف الشر في الآخرين فيمنعنا من رؤية الشر الذي فينا) (حجازي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)

هكذا تظهر خطورة التملك، فيما يخص تفخيخ علاقات الإنسان بغيره، ومراكمته لعدوانيته التي تبحث دائمًا عن متنفس، مما يحول العلاقات إلى منازل حقد مشرعنة في هيئة أسر وأخوات ومؤسسات قرابة. وتتناسب درجة العنف والعدوانية والسادية طرديًّا مع درجة التملك وقسوته. يطالعنا نجيب محفوظ في إحدى رواياته على شخصية (زيطة) صانع العاهات. تخصص في بتر أعضاء من يطمح للتسول. يفعل ذلك بتلذذ وحرفية، تتناسب درجة عدوانيته وساديته مع القهر والقسوة التي تعرض لها خلال

حياته عندما كان ابنًا لأم متسولة تركته بين قاذورات الأرصفة حيث قضى معظم طفولته.

يعبر عن ذلك أحد رواد المدرسة الظواهرية: (ليس هناك مطلقًا عنف مجاني، اعتباطي أو فجائي أو بدائي. العنف الذي نراه مجسدًا في كارثة علائقية هو وليد عملية تغير بطيء داخليًّا وعلائقيًّا، يقضي على عواطف الحب والمشاركة ليفجر مكانها العنف حرًّا)

(فك الارتباط العلائقي وما يرافقه من برود عاطفي يخلق غربة كبيرة بين المعتدي وضحيته. بعد قمع مشاعر الحب والمشاركة تنفجر مشاعر الحقد) (حجازي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)

وهل هناك أقوى من التملك الناتج عن الخوف بإمكانه تحويل العلاقات إلى حلبات صراع بين الآباء والأبناء، الأزواج والزوجات، الحكام والشعوب، المحتل والشعوب المقهورة، الرأسمالي والعمال. علاقات كان الأساس فيها استغلال الإنسان لرفيقه الإنسان اقتصاديًّا وسلطويًّا وجنسيًّا، وكانت النتيجة فك الارتباط العاطفي أو غريزة الحب التي تجمع البشر وتوحدهم، وفتح المجال لنزوة الموت والحقد والسادية والتدمير بين أفراد الأسرة الواحدة والأسر وبعضها والطوائف والشعوب.

يضيف د. مصطفي حجازي في بحثه عن العدوانية عبر كتابه سيكولوجية الإنسان المقهور (وحتى يتجسد هذا العنف لا بُد من عملية شرعنة، تغطي المعتدي وتزيل عنه المسؤولية بوضعها على الضحية، أنه بريء ومظلوم ولا مسؤولية له فيما حدث، إن واجبه أن يدافع عن نفسه التي امتهنت وحقوقه التي اغتصبت، الاتجاه الإنصافي لا يستمر إلا من خلال التحقير الثابت للضحية، يتحول الآخر إلى أسطورة السوء والحسد وانعدام القيمة، يفقد حقيقته كشبيه إنساني في عيني القاتل متحولًا إلى أسطورة لا واعية)

لتبرير تملكه وسلطويته يحول الرجل المرأة إلى أسطورة السحر والغواية والضعف والقصور والشيطنة، والتي تحتاج إلى عقل الرجل وحكمته وتخطيطه وردعه.

تحول الطبقات المسيطرة على الشعوب أسطورة الغباء والغوغائية والقصور والضعف الفطري والتخلف، لتتبرير وشرعنة العنف والاستغلال والإفقار.

كذلك الحال بين اتباع الأديان والطوائف المختلفة حيت تنفى الإنسانية المشتركة لتتحول كل طائفة بالنسبة للأخرى إلى أسطورة الشر والعدوانية لتغطية وتبرير ميول استغلالية واستعمارية.

لا تخرج سادية القبيلة الإسرائيلية تجاه الفلسطينين عن هذا الإطار. الهدف الأصيل الاحتلال والسيطرة على الأرض. ولشرعنة

ذلك يتم أسطرة الفلسطيني كرمز للبربرية والعدوانية والتخلف. يتلذذ الإسرائيلي المتطرف بتعذيب الفلسطيني ويفعل ذلك كشكل من أشكال التقرب إلى الله شيخ القبيلة الكبير، الجبار الذي اختار بني إسرائيل لتحقيق غاياته الاقصائية والاستعمارية. أسفار مقدسة عتيقة تغلغلت في أنسجة وعي قبيلة تملكية للغزو وإقصاء الآخر في صحراء الصراع الصفري على البقاع الخضراء والكلأ. ورغم مرور مئات السنين ما زالت القبيلة تنظر إلى أي آخر كعدو آني أو محتمل.

(في هذه الكارثة العلائقية، تتحول الضحية أسطوريًّا لا إلى مستوى الشيء فحسب، ولكن إلى مستوى الشيء حامل اللعنة الذي يجب تحطيمه، وهكذا يبدو العنف التدميري كضرورة مبررة) (حجازي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)

١- "الأخوة الأعداء"

هل من الممكن توقع مشاعر الترابط والإحساس بالآخر في سياق مؤسس على الهيمنة والرقابة وقمع الطاقة الطبيعية للآخر بغرض استغلاله وتطويعه لمصالح الأب والذكر والزعيم؟

لطالما تطالعنا الأخبار يوميًّا بحوادث عنف، يتدرج من تحرش، وعنف لفظي، وبدني، و قتل من أجل الميراث، أو حتى انتحار غير معروف الأسباب وذلك داخل العائلة الواحدة. والتنميط في إصدار

الأحكام يتراوح بين البعد عن الدين، وضياع أخلاق الطاعة، واحترام الكبير، وخرق القيم العائلية، والبعد عن الدين وكهن الزوجات، دون تحليل جذري لطبيعة علاقات العائلة الأبوية التملكية المؤسسة على تفرد الأب بالسلطة وفرضه الولاء والطاعة على الأبناء والزوجة واتباع أساليب التحكم في سلوكهم من تعزيز لامتيازات الأقرب، كما إقصاء المتمرد على سلطاته. وفي ذلك إثارة لمشاعر الحقد والغيرة. فضلًا عن أن أسلوب السطوة ذاته ينتج كائنات تحمل من عقد النقص ما يجعلها في حالة عدوانية دائمة وحقد ورغبة في السيطرة على الأضعف جنسيًّا وعمريًّا. سيطرة الأخ الذكر الكبير على الإناث والأخوة الصغار تجسيد للعنف الخارجي. يصاحب ذلك عنف داخلي تجاه الذات التي يشعر الإنسان بدونيتها فضلًا عن عقدة الشعور بالذنب الناتجة عن رقابة الأب الدائمة.

الطفلة التي يتم قمع ذاتها من اللحظة التي تتفتح روحها للحياة، ويتم إعدادها كخادمة داخل منزل الأب والزوج لاحقًا ماذا نتوقع منها سوى العنف الموجه إلى ذاتها من ثقل ما تحمله من أعباء ومشاعر ذنب وعنف موجه إلى الآخر وأقربهم الأطفال في محاولة لتعويض نقصها بتربية سلطوية وانفعالية للأطفال. ليتحول الأمر في المستقبل إلى حرب الحماة وزوجة الابن التي خطفت ملكيتها الخاصة. دورة من التملك والتملك والمضاد والجذر يعود إلى أب

أولي حاول بكل ما أوتي من حيلة السيطرة على ذات امرأة، معتقدًا أنه هكذا استتب له الأمر حاضرًا ومستقبلًا.

الأخوة الأعداء ليست ظاهرة خارقة التقاليد، بل هي من خصائص الأسرة التملكية الجوهرية، ولكن يتم التغطية عليها بشعارات الوحدة والأخوة التي تصب في مصلحة تفرد الأب بالسلطة والسطوة.

يولد الطفل وداخله خوف هائل من الحياة والوجود، تتلقفه يد مرتجفة، خائفة، تعتقد فيه ملكيتها الخاصة، تبدأ الرحلة التملكية من عمر مبكر جدًّا، عيون جاحظة ولسان سليط لجعله يتحكم في إخراجه وفطامه وترويضه على العادات الاجتماعية، والإشكالية ليست في الترويض ولكن في الأسلوب وأيضًا الرغبة في السيطرة والتحكم لمجرد السيطرة والسطوة. أثناء حل واجبات الدراسة تنهال عليه إشارات الغباء والبلادة والمقارنة. وصولًا إلى المراهقة والتحريم والتجريم والتدنيس المعتمد والغبي لأعمق رغباته أصالة من حب وتحقيق للذات وتقدير للذات. يخرج ذات الطفل للمجتمع ومؤسساته، ليقابل معلم وموظف وقاضي وضابط على نفس الشاكلة.

ما هي ماهية ذات إنسانية تعرضت لهذا القمع الجذري لذاته؟

الإحساس بالعار والدونية والعجز وما ينتج عنهم من خوف عميق يتحد مع الخوف الأولي الهائل من الوجود وقلق الهجر والانفصال.

والخوف العميق ينتج عدوانية عميقة تأخذ مسارين لا ثالث لهم. المسار الأول عنف عميق موجه تجاه الذات وشعور عميق بالذنب والتقصير، فالأب والأم والشرطي والمعلم تحولوا إلى سلطة داخلية تحاسب الذات على أقل هفوة. هذه العدوانية المهولة تجاه الذات هي مصدر الاكتئاب والسوداوية والاستسلام الحتمي لسلطة قوية داخلية لا يستطيع الإنسان الإفلات من قسوتها بينه وبين ذاته ولا يخفف من حدة ذلك سوى الرضوخ للمتسلط وتنبي سلطته وهذا لب مظاهر الطاعة والخضوع للاب للمتسلط والمستبد السياسي. تخفيف من حدة مشاعر الذنب والعدوانية الموجهة تجاه الذات بطلب الصفح المتكرر من المتسلط السبب الرئيس لهذه الحلقة النفسية الموجعة. الطاعة والخضوع باطنهم عدوانية وخوف وكراهية لا العكس. وهذا يتنافى مع قداسة أخلاق الطاعة والخضوع في المجتمعات الأبوية الاستبدادية. إنسان المجتمع التملكي يحاول تعويض جرحه النرجسي العميق وشعوره بالعار بتبني شخصية المتسلط بعد ممارسة طقوس الخضوع والتعبد له. الأب المستبد والقاسي داخل أسرته، خارج أسرته عبد مطيع لسلطة رب عمله أو سلطة السياسي والإداري. وكلما زاد خضوعه في الخارج تضاعفت قسوته على الأضعف. لا يعرف من أساليب التعامل مع الآخر سوى هذه الأساليب؛ لأن الأسلوب الطبيعي والذي يتمثل في الاعتراف بالآخر واحترام حقوقه لم يجربه من قبل.

ليجد ذاته في حالة نقص عميق يحاول الهروب من وطأة ثقله بالتعويض، الخضوع والتكفير ولوم الذات وفي المقابل لوم الآخر ومحاولة السيطرة عليه لمجرد السيطرة وفي كل الحالات لا يشعر أبدًا بالرضا عن الذات أو السلام النفسي أو الأمن أو تحقيق الذات رغم طاقته المهولة المستنزفة في الحفاظ على ذاته والدفاع عنها.

٢- محاولة للبحث عن جذور العنف في المجتمع المصري المعاصر.

في كتابه جوهر الإنسان قسم المفكر"إريك فروم" العنف إلى أشكال متعددة. وفي إطار هذا الفصل من الممكن الربط بين تلك الأشكال وجذورها في البيئة المصرية المعاصرة. مع الملاحظة أن هذا العنف هو عنف للحفاظ على الحياة ضد محاولات خنق وكبت الطاقة الحيوية للإنسان.

في البداية أود الإشارة إلى طبيعة الخلق الإنسانية هي نزعة إنسانية أصيلة، الإنسان كائن منتج، خلاق، منطلق، يريد الشعور بقيمته وتحقيق ذاته. إذا أتاح له السياق تحقيق ذلك، ازداد رضاه عن ذاته وتحددت عدوانيته. أما في حال خنقة المجتمع والسلطة والجهل، تحول إلى بركان قابل لإخراج حممه في أي وقت وبشدة تتناسب مع شدة القهر.

أنواع العنف.

أولًا. العنف الناتج عن الإحباط.

وهو العنف الناتج عن إحباط حاجات بشرية أساسية، كالرغبة في العمل، والإنتاج، وتحقيق الحد المشبع من الحاجات البيولوجية، كالإحساس بالأمن والكفاية المادية، أو الحاجات النفسية كالحرية والاستقلال والكرامة. الإحباط في الحصول على تلك الحاجات، يخلق ردود فعل عنيفة عند الإنسان بداية من الحسد والغيرة حتى التخريب المعتمد.

شروط هذا العنف حاضرة بقوة في سياق المجتمع المصري.

نخبة سياسية واقتصادية مدعومة بتاريخ نهري قديم، فرض على المجتمع الرضوخ لسلطة تؤمن وصول المياه مقابل الأمن والحرية. سلطة سياسية واقتصادية احتكرت كل مقدرات الوطن، تاركة الغالبية العظمى من الشعب للفقر والحاجة والبطالة، خلقت قانونها الخاص الذي يؤمن لها الاستمرارية، ويحرم الطبقات الدنيا من إشباع حاجاتها الأساسية من العمل والكفاية والحرية. العنف هو رد الفعل الطبيعي لإنسان يدافع عن بقائه الطبيعي. اتخذت تلك العدوانية مظاهر الحسد والغيرة والحذر الشديد والعنف اللفظي والبدني وأحيانًا ممارسة التسلط على الأضعف جنسيًّا وعمريًّا كالمرأة والأطفال.

ثانيًا: العنف الانتقامي

العنف الانتقامي ناتج عن إدراك الظلم الواقع والإحساس الملموس بعدم المساواة.

بصورة أدق أو على حد تعبير المفكر"إريك فروم" "تحطم الإيمان" تحطم إيمان الإنسان بكل من وضع ثقته بهم لإشباع حاجاته والحصول على الكرامة والحرية. عندما يتحطم إيمان الإنسان بأبيه وأمه وعائلته ونظامه السياسي، ربما يلجأ إلى التعويض عن ذلك بالبحث عن صديق آخر يثق به. ولكن رد الفعل في أحوال أخرى يكون أعنف، وذلك بأن يكره الإنسان العالم، وتتكون لديه ميول اضطهادية، ويتوقف عن التعامل مع البشر كجوهر إنساني فيتمنى الموت والدمار للجميع.

ربما يكون الإنسان المصري قد تحطم إيمانه منذ زمن بعيد بكل سلطاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية. قلة تمتلك السلطة والثروة والقانون، تاركة ثلاثة أرباع الشعب فريسة للفقر والبطالة والهجرة. هناك من عوض هذا التحطم بالاندماج بالرموز الدينية "مسجد، كنيسة" أو أحزاب أو حتى أولياء أو التعصب لنادي رياضي. وهناك من عوض ذلك بتعميق الشعور بالكراهية للعالم والبشرية، وهنا منشأ النزعات التدميرية والإرهابية. هو الحقد على العالم أجمع وكره الحياة والرغبة الحادة في إيذاء الغير، معنويًّا

عن طريق الغمز واللمز والغيبة والنميمة والسب والعدوانية المبطنة، وماديًّا ضربًا وتحرشًا.

ثالثًا: العنف التعويضي.

أنه عنف من وضعته الحياة موضع العاجز عن الفعالية والإنتاج والخلق، ربما لعلة جسدية أو سجن أو ضعف أو نقص في الكفاءة. العجز يولد عنف كبير وعدوانية شرسة، وذلك لأن العجز والفراغ يتنافى مع ماهية الإنسان ككائن منتج مبتكر، لديه رغبة دائمة في تحقيق ذاته والشعور بالتقدير تجاهها. لتعويض عجزه يلجأ الإنسان إلى القوة لتحطيم من أمامه، ليشاركه عجزه وقلة حيلته. يلجأ العاجز إلى محاولة التسلط والسيطرة على الأضعف منه لتعويض شعوره الشخصي بالضعف. كتسلط الأب المقهور على أبنائه وزوجته.

في المجتمع المصري وخصوصًا منذ أواخر سبعينيات القرن الماضي، مع الانفتاح وقضاء السلع الأجنبية على الصناعة المصرية، والتجريف المعتمد للأراضي الزراعية وسيطرة الاقتصاد الخدمي والعقاري، انتشرت البطالة. والبطالة المفروضة هي نوع من العجز المفروض. شاب في كامل طاقته الإنتاجية والابتكارية ينتظر تحقيق ماهيته كإنسان بالعمل وتحقيق الذات والإنتاج. فلا يجد سوى الفراغ وانسداد كل منافذ تحقيق الذات. ويرتبط بذلك عدم إشباع حاجاته الطبيعية. إنه الموت الحي. تتولد لدى المصري ميول

عدوانية، ضد ذاته كالرغبة في الانتحار وإيذاء الذات. وضد الآخر كالرغبة في تعذيب الآخر بالعناد والعنف اللفظي والبدني والبلطجة في حالة غياب القانون وعدم تنفيذه على المتنفذين في المجتمع لصالح الضعفاء..

إنه تحطم الإيمان بكل شيء في المجتمع، والرغبة العميقة في تدمير الذات والحياة. تندمج تلك النفسية المعذبة مع دعوات الزهد والتقشف وتفجير النفس والدعوات الإرهابية، والتي يدعو إليها من يصطاد في الماء العكر مستغلًا حالة الإحباط العام وغياب مظلة الدولة الحاضنة.

مظاهر العنف..

أولًا: العنف الموجه إلى الذات..

قد يعتقد بعض الآباء أن العنف في التربية مبرر لغرس القيم النبيلة في جهل تام بأثر ذلك على الطفل. الطفل لن يتذكر القيم النبيلة لكنه سيتذكر القسوة وتتراكم بداخله طبقات من العدوانية؛ لأنه لم يستطع التعبير عن كراهيته للأب. هذه العدوانية يوجهها الطفل إلى ذاته في صورة انطواء وشعور بالذنب وصولًا إلى تدمير الذات بالانتحار لشعوره بالنقص والمهانة وعار الضعف. في فترات الضعف يسود العنف الموجه إلى الذات في صورة شعور عميق بالذنب ودعاء وحاجة التكفير واحتقار للذات أمام الأب والشرطي والحاكم.

ثانيًا: العنف الموجه إلى الخارج

لا يستطيع الإنسان تحمل هذا القدر من العدوانية المتراكمة داخله، يبدأ في توجيهها إلى الخارج ولكن ضد الأضعف منه، الرجل يسقط عدوانيته على المرأة، الموظف على المواطن، وهكذا لا يستطيع الإنسان توجيه العدوانية ضد المتسلط سواء كان أب أو معلم أو حاكم ظالم، ذلك من شأنه تهديد لوجوده. العنف الخارجي يندرج تحته، نظرة الحقد والسباب والكسل والتخريب والجنح الصغيرة واختراق القانون وصولًا إلى الصور الفجة من تعذيب وقتل لأتفه الأسباب فالعدوانية متراكمة.

ما السبيل للخروج من دوامة العنف هذه؟

احتواء الإنسان وماهيته الحرة الكريمة المنتجة الخلوقة المستقلة، عبر دولة حاضنة وليست مستغلة ومحتكرة للثروات. دولة قانون يثق بها الضعفاء والبسطاء أنها ستكون درعهم ضد مراكز القوى الاقتصادية والسياسية. دولة تعيد للمواطن دوره وحقه الفطري في العمل والإنتاج وإشباع الحاجات الطبيعية والنفسية. دولة تأخذ بيد المواطن للثقافة والعقلانية وحس النقد والفرز في مواجهة عالم صاخب متغير متجدد في مواجهة أي نزعات متطرفة أو غير عقلانية.

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس

التملك والانشطار

في السياق التملكي "نحن لسنا أنفسنا.."

١- الانشطار كآلية دفاعية

التملك يزدهر وينمو مع الأسرة التملكية؛ لأنها الكيان المستقر الذي تنضج معه كل العلاقات التملكية من أبوة وأمومة وبنوة وزواج. التملك في جوهره أعم وأشمل من الاستبداد، الاستبداد من الممكن تحققه حتى في ظروف عابرة الحوار مثلًا، ولكن التملك علاقة قائمة، ومستقرة، ومستمرة ما يجعل آثارها النفسية تستقر في النفس بكل ما تحمله من تشويه. ربما يكون الاستبداد آلية تملكية تتجاور مع التعنيف والتهديد والتحقير والحب المشروط وتتقاطع معهم ولكن في إطار مستقر وثابت وهو الإطار الأسري التملكي.

الطفل الذي يستقبل الوجود في هلع ناتج عن شعور بالضعف أمام طبيعة مجهولة وكائنات أضخم منه على المستوى الجسد والمعرفي، يتضاعف هلعه عند اصطدامه بأب أو أم تملكية تهدده بالهجر والنبذ والحرمان والانفصال؛ لأنه عبء أو وسيلة لا تتماشى مع تعليمات الأم "الحب المشروط". يشعر الطفل بالضياع وهلع الفناء؛ لأن هذا الأب وهذه الأم وسائط الحياة بالنسبة له، وقد سخرتهم الطبيعة لتحقيق أمنه دون شروط أو ابتزاز. هم عقله وجسده وقلبه وحياته. مع التملك يتحول تحقيق الأمن والرعاية للطفل من حق رئيس إلى منة من الأب والأم وهذه هي عقدة العلاقة التملكية. مع التملك تتشوه نظرة الأم والأب للابن. وطوال مدة التملك يعتقد الآباء أن هناك ثمن يجب أن يدفعه الأبناء

نظير الرعاية، يتدرج هذا الثمن من الطاعة، إلى الخضوع، إلى تشكيل الميول، إلى التعلق والتبعية.

يهلع الطفل أمام التهديد والابتزاز والصراخ والعصبية والشروط القاسية وبجانب ضعفه الأصيل أمام الطبيعة يتضاعف شعور بالضعف والتهميش والدونية؛ لأن الطفل يستمد قيمته وانتماءه الأولي من نظرة الأم وتقييمها له.

لا يجد الطفل أمامه من وسيلة لحماية ذاته سوى الانشطار، ويعني ذلك تخلي الطفل عن ذاته الأصيلة بكل رغباتها وميولها، ويبدأ في تبني ذات الأب والأم والسلطة. وبالتدريج تبدأ ذاته المنشطرة الاصطناعية في التشكل، متبنية عقيدة السلطة، لتكون بداية قمع العفوية، والحيوية، والأصالة الذاتية، وبداية ظهور النفاق والاصطناع، والشعور الإنساني أن هناك بداخله شيئًا ما يموت، في كل لحظة يتبنى إرادة إنسان آخر.

هذه الذات المنشطرة المصطنعة الجديدة تقوم بوظائف عدة من شأنها الحفاظ على وجود الطفل واعتباره وقيمته، عبرها سوف يستطيع الطفل الاندماج بسلطة الأب والأم والقبول بشروطهم مقابل الرعاية والأمن. يستطيع الآن النفاق وإظهار علامات الخضوع والطاعة. تمثل هذه الذات المنشطرة بالنسبة للطفل القناع الاجتماعي المنسجم مع السلطة، والذي يستطيع من خلاله

إظهار عكس ما يبطن من عدوانية ونزق ورغبات داخلية مكتومة. وعليه دائمًا الحفاظ على سلامة وحيوية هذا القناع الدفاعي. يستنزفه هذا الأمر نفسيًّا؛ لأنه يتطلب طاقة نفسية مهولة يتم هدرها، لا لتحقيق وجوده، ولكن للحفاظ على سلامة وجوده المصطنع، سيما أن الطفل في السياق التملكي يجد ذاته محاصرًا بعيون تعد عليه خطواته وتحركاته، يستمر هذا الحصار ويزيد مع نموه وتطوره حتى مماته.

يدفن الطفل ذاته الأصيلة في القاع ويحتقرها؛ لأنها سبب غضب السلطة، يشق طريقه الوجودي بواسطة القناع، الذي يمثل حصنه الوحيد أمام السلطة التملكية العنيفة، والذي يمثل بدوره حاجزًا بينه وبين ذاته الطبيعية الأصيلة.

الذات الاصطناعية المنشطرة تتماهى وتتبنى عقيدة السلطة، لذا فهي تعيد حلقة التملك من جديد. الابن يتبنى شخصية الأب ليفرض سطوته على أخته ويحتقر جنس النساء عمومًا. هذا الاحتقار هو عدوانية موجهة إلى الآخر تماهيًا مع سلطة الأب وتقليده، أو تنفيسًا عن الإحساس بالكبت المتراكم من طول فترة التملك وعنفه. ميلاد العنف في المجتمعات دائمًا ما يرتبط بالتقليد أو تحويل العدوانية إلى الأضعف، للتنفيس عن ما بداخل الذات من قلق وشعور بالتهديد. التملك بحد ذاته تهديد؛ لأن الإنسان يجد ذاته دائمًا في وضعية المهدد بفوهة مسدس مصوب إلى رأسه،

إما أن ينفذ المطلوب منه أو القتل. والقتل للطفل يتمثل في تركه وهجره بلا رعاية.

المرأة بدورها تتبنى عقيدة الرجل وتحتقر جنسها وحتى بناتها. هي تتصرف عبر ذاتها المنشطرة المملوكة لسلطة الأب. وهكذا تتوالى حلقات إعادة إنتاج التملك، التلميذ الذي تم احتقاره يومًا ما من معلم، يتحول يومًا ما إلى معلم أشد قسوة وتملكًا.

الانشطار آلية دفاعية ضد عنف التملك لكنها في دفاعيتها تهاجم الإنسان وذاته الأصيلة.

هذه الذات الاصطناعية المنشطرة لا تتوقف وظيفتها على تبني ذات المتسلط والقيام بفعل التسلط ضد الأضعف. لكنها تمارس التحقير والتبخيس لذات الإنسان الأصيلة بعد ارتداد العدوانية ضد الذات. وفي اعتقادي هذا هو منبع الاكتئاب وهدر الذات وشعور الإنسان أنه يهدر ذاته ويهاجمها. وأيضًا سبب الشعور الإنساني غير المنقطع بالذنب والقلق، وأن هناك من يطارده حتى في حالة وحدته وبعده عن أي مخاطر ونومه. إنه المتملك والمتسلط الذي ترك سوطه وكاميرته داخل الإنسان. وتستمر هذه الكاميرا الراصدة وهذا السوط داخل الإنسان، حتى بعد موت من تسلط عليه، وحتى لو انتقل إلى مجتمع آخر حر ومنفتح. يصيب الناس الدهشة من المهاجر الذي يتبنى نفس سلطات ومخاوف وهواجس مجتمعه

المحافظ القديم، رغم وجوده في سياق مختلف. إنها الذات المنشطرة التي لا يمكن إبطال فعاليتها بمجرد تغيير السياق أو موت السلطة، ولكن بوعي داخلي عميق وطويل بآلية عمل التملك، والقدرة على قتل السلطة الداخلية (قتل الآباء).

الإنسان يحتقر ذاته بواسطة الذات المنشطرة التي ولدت بداخله، واحتقار الذات عدوانية موجهة ضد الذات الأصيلة بكل ما تمتلك من جينات للشخصية الطبيعية المتفردة. هذا الاحتقار تحدد مقاييسه السلطة الاجتماعية التملكية، في المجتمعات التملكية يحتقر الإنسان فقره وطيبته وعدم رغبته في الصراع الدائم، يحتقر تشبيهه بالمرأة. في مقابل قيم الذكورة والثراء والفهلوة والافتراس والشراسة والتلون والطاعة والتفاني في خدمة التسلط وأرباب الأعمال، جلها قيم تعلي من شأنها مؤسسات المجتمع التملكي.

الأم التي تكره الجسد ورغباته تتبنى ابنتها نفس الاحتقار، ويعود هذا الاحتقار بالأساس إلى احتقار الرجل لحرية المرأة في التعبير عن رغباتها. لذا كلما طفت رغبتها إلى السطح قمعتها، وذلك هو مبعث القلق والتوتر والشعور بالذنب العميق؛ لأن الذات الأصيلة تخفت ولكن لا تموت بل تستمر في الخفقان. يضطر الإنسان لتجنب هذا القلق إلى التبلد ومع الوقت يتحول التبلد إلى بلادة طبيعية وجمود.

الإنسان الفقير يحتقر فقره، رغم أن الفقر ليس جريمة، بل في الحقيقة الثراء هو الجريمة الحقيقية في حال وجود معدمين. لكنها مقاييس السلطة التي يتبناها الإنسان بواسطة ذاته المنشطرة.

السلطة الأبوية تشوه ذات الإنسان الأصيلة وتعلن حرب عنيفة ضدها.

وهكذا ينمو شعور الإنسان بالنقص والاحتقار لذاته لأنه (ضعيف - أنثى - فقير - غير عفيف) ويحاول طوال الوقت تزيين قناعه بادعاء الذكورة والسطوة والتملك والثراء.

رغم ذلك لا يتوقف إحساسه بالقلق والمطاردة والاحتقار لذاته؛ لأن السلطة لا تتوقف عن تهديدها وتحقيرها للذات الأصلية، وهذا مبعث الشعور بالاكتئاب الجزئي الذي يعاني منه إنسان المجتمع التملكي مهما كان موقعه السلطوي أو الطبقي.

الذات المنشطرة التي تعمل كآلية دفاعية لا تتوقف فعالياتها بمجرد حصول الإنسان على الثروة أو السلطة أو مدى إتقانه لوضع القناع، بل تستمر نشطة لتجعل الإنسان دائمًا تحت ضغط الشعور أنه حقير وناقص. يصل الاكتئاب إلى كليته إذا زاد نشاط هذه الذات لحده الأقصى في التبخيس الذاتي، ولم يجد الإنسان منفذ لتوجيه عدوانيته إلى الخارج. وضعية المرأة في المجتمع التملكي خير مثال على ذلك، حيث أن المرأة ممنوعة من التعبير عن

غضبها، إلى أن تتحول الأمومة لديها إلى سلطة كسلطة الأب أو الزوج في المستقبل. والحصار على المرأة شديد على كل المستويات النفسية والاجتماعية والمهنية.

الرجل أيضًا تعمل الذات المنشطرة لديه في اتجاه تبخيس الذات، ولكن وجود مجال لديه لفرض ذاته سلطويًّا كأب أو زوج أو أخ كبير أو رأسمالي، كل ذلك من شأنه خلق منافذ للعدوانية لديه، لتتسرب في اتجاهات أخرى تخفف من مشاعر احتقار الذات. وهذا لا ينفي شعوره بالاحتقار الذاتي والنقص ولوم الذات والإحباط.

عمومًا الأمر نسبي ويختلف من فرد إلى آخر، حسب طبيعة التملك ودرجته وبنية الشخص النفسية والمنافذ المتاحة أمامه لتفريغ طاقته العدوانية.

الانشطار وإدراكه يعد بداية فهم الإنسان لمرض الاكتئاب الذي هو في الأساس عدوانية مرتدة إلى الذات. والانشطار يفسر كيف يمكن للإنسان أن يحارب ذاته بضراوة بعد تبنيه لا شعوريًّا ذات السلطة.

إنسان السياق التملكي يعاني من عرض أو أكثر من أعراض الاكتئاب الذي تتنوع أعراضه (لوم الذات، التوتر وسرعة الانفعال، السلبية الناتجة عن تهميش الذات، الجمود والتبلد

لتجنب مشاعر القلق المؤلمة من فرط عدوانية الذات المنشطرة تجاه الذات الأصلية).

٢- التملك وأخلاق القناع.

أن تشكل الذات الاصطناعية المنشطرة، كان نتاج الخوف الأولي والعميق من السلطة وذلك لتجنب بطشها بالتماهي بها ومعتقداتها.

وذلك من شأنه تسليط الضوء على سلطوية فكرة الأخلاق في المجتمعات التملكية.

الإنسان يخوض وجوده وفق إرادة السلطة "الأبوية، السياسية، الاقتصادية" بصرف النظر عن مطابقة هذه المعتقدات السلطوية لأفكار العدالة والحرية والمساواة والنمو الحر. قمع المرأة في المجتمع العربي الأبوي مشروع ومعترف به اجتماعيًّا وقانونيًّا؛ لأن السلطة أبوية. كذلك القوانين والأعراف التي تصب في كبح جماح حرية المرأة وإرادتها وحرية تحديد مصيرها. الأخ الكبير في المجتمع التملكي يمارس سطوته على أخته الأكبر منه بكل فخر وتعزيز اجتماعي. الرجل في المجتمع الأبوي التملكي هو مقرر الأخلاق وعبره يتشكل الضمير ومعايير الحرام والحلال.

كذلك أخلاق الرضا والزهد تنسجم مع مصالح أقطاب السلطة والثروة، وأيضًا أخلاق السعي والعمل الشاق دون انتظار مقابل دنيوي.

في المجتمعات الرأسمالية التملكية تسود أخلاق عبادة العمل والمال والتنافس وكلها قيم تخدم إستراتيجية الإنتاج الأقصى والاستهلاك الأقصى. القتل من الوارد تحوله إلى فضيلة إذا تعطلت مصالح الرأسمالي وجر البلاد إلى حرب من أجل سلعة أو تأمين سوق، عندئذ يتم شحن المواطنين بقيم الوطنية والدفاع عن الوطن الذي تم اختزاله في مصالح الرأسمالي. وبعد استهلاك المواطن ساعات طويلة في المصنع، يجري استثماره في الحرب. السرقة أيضًا من الوارد تحولها إلى خلق، إذا ارتبط الأمر بالتسويق والفوائد واستغلال حاجة المواطنين للسلع، لجرهم طوعًا إلى بطاقات الائتمان، والتي تنتهي بالفقر والسجن.

تتغير الأخلاق الاجتماعية وتتبدل حسب تغير مصالح الأقوياء "جنسيًّا وطبقيًّا"، ومعها يتغير شكل الضمير السلطوي المزروع في كل إنسان منذ ولادته والذي تمثله الأنا الانشطارية.

لذلك فإن مقاييس الأنا الاصطناعية المنشطرة "الضمير" هي مقاييس السلطة ودائمًا تكون الضحية ذات الإنسان الأصلية التي يتم تحقيرها دون توقف، لميلها وعدوانيتها السوية.

إنسان المجتمع التملكي في حالة قلق وتوتر واكتئاب جزئي وكلي لا يدري سببه ومصدره، خصوصًا أن كل تقدم للإنسان في اتجاه الأخلاق يضاعف من قلقه وعصبيته واكتئابه المرتبط بالشعور بالذنب وجلد الذات.

الفصل السادس

التملك وتزييف الانفعالات والوعي

١- الانفعالات في السياق التملكي.

في السياق التملكي، معظم انفعالاتنا ومشاعرنا وتصوراتنا عن الواقع بل وعن أنفسنا تكاد تكون مزيفة ومبالغ فيها.

الإنسان في السياق التملكي يفرض عليه تصور معين للوجود والحياة باختلاف موقعه ودوره في السياق التملكي. الإنسان دور بصرف النظر عن تراتبية هذا الدور في السلم السلطوي. كل دور مرتبط بمجموعة من الواجبات والوظائف. من الأب (المالك، المروض، المسؤول، صاحب الحق في امتلاك الرحم والأبناء وتشكيل سلوكياتهم بما يتوافق مع مصالح مشروعه التملكي)، مرورًا بالمرأة (الأم الزوجة) والتي توقف تصورها لوجودها كونها زوجة وأم تطبق وتضمن تنفيذ برامج الأب فيما يخص تكوين وعي الأبناء لمصلحة السلطة الأبوية. حتى وعيها بكينونتها توقف عند حدود عفتها وجمال جسدها وقدرتها على الاستمرار كأم. لا يمكنها الاقتراب من منطقتها الخاصة كامرأة حرة قبل أن تكون زوجة وأم. هي الدور المفروض عليها. هكذا العامل والمواطن المقهور في قاعدة المجتمع الهرمي والذي توقف تصوره لذاته كتابع لأقطاب سلطوية، ومع استمرار آليات تزييف وعيه، تترسخ لديه أن وضعيته سنة حياة ووجود لا سبيل حتى في التشكيك بها.

وما دام التصور عن الذات والوجود مزيف، فالانفعالات التابعة لهذا التصور مزيفة. الإنسان في السياق التملكي تفرض عليه

الانفعالات من السلطة. فرحة الزواج الانفجارية في حقيقتها فرحة انفراج بعد كبت عاطفي طويل، فرضته السلطة كوسيلة ابتزاز للاستغلال والتملك. الجنس غريزة ينتج عنها الانفراج والرضا الذاتي، يمارسها الحيوان بتلقائية دون احتفال أو انفجار أو توقيت أو مقاييس سلطوية وطبقية. من الطبيعي أن يشعر أي كائن حي بالرضا وراحة البال والانبساط العصبي إذا حقق رغباته الجنسية والعاطفية، إلا أن الفرح الهستيري والانفجاري معناه أن هناك حرمانا طويلًا وأن السلطة قد أذنت أخيرًا وبعد طول تعليق وكبت، بتحقيق غريزة قوية وطبيعية ووجودية.

تبرمجت أفراح المرأة في السياق التملكي كما حددها السياق، فرحة الستر والزواج والولادة وأعياد ميلاد الأطفال وزيجاتهم. كذلك الرجل الذي حدد له السياق انفعالات فرحته بزواجه وثروته وملكيته وطبقته ودوره التملكي في السيطرة على مستقبل الأبناء بما يتوافق مع مصالحه الأبوية.

الطقوس تمثل التواريخ التي حددها السياق للاحتفال وحتى الحزن من أعياد ومناسبات مرتبة ويتحول الانفعال فيها سواء بالفرح أو الحزن إلى واجب.

الأعياد الوطنية ترتبط ارتباط وثيق في السياق التملكي باستعراض هيبة وقوة الحكام الآباء الإلهة، لتكون فرصة دورية لتثبيت

قداسة الآباء وسيطرتهم وترسيخ وحدة الشعوب في الإيمان بهم وخشيتهم.

كل إنسان لديه القدرة على تعلم الوسيلة والآلية التي يحافظ بها على حياته. يمتلك الإنسان سلاحه الوجودي الطبيعي المجسد في رغبته وميله. في حال كان الإنسان حرًّا في اختيار مصيره، دون تملك أو ابتزاز أو شروط، سيحقق وجوده بطريقته وهو في ذلك لا يشعر بفخر، أو تفوق مرضي على الآخر، أو إعجاب نرجسي بالذات. ربما يشعر بارتياح؛ لأنه أتقن التعامل مع الطبيعة ونجح في الحفاظ على ذاته.

أن يرتبط شعور الإنسان بالنجاح والإنجاز بتحقير الآخر وإشعاره بالنقص والضعف، لا يحدث ذلك إلا في السياق التملكي.

في السياق التملكي لا يتحقق النجاح والإنجاز إلا باعتراف السلطة الأبوية والرأسمالية في سياق تنعدم فيه المساواة ومبدأ تكافؤ الفرص. الظروف مهيئة لقلة مالكة وغالبة ومهيمنة بفعل الإرهاب والتخويف والنهب والاستغلال. الأكثرية تتهافت على الفضلات والفتات والفرص القليلة المتدنية الأجر، والخلفية سياق تنافسي شرس، سوق لا يرحم ولا يتوقف عن إثارة رغبات الاستهلاك والتملك والتخلص دون رحمة من الآخر المنافس بعد إشعاره بالضعف والتحقير.

ربما يختلف السياق الأبوي التنافسي عن السياق الرأسمالي الاستهلاكي في النوع والدرجة إلا أن النتيجة واحدة. الإنسان يربط تقديره بذاته برضا السلطة، سواء كانت هذه السلطة أبوية أو رأسمالية. الإنسان في المجتمع التملكي، لم يعد يهمه سعادته وفرحته الشخصية جدًّا والاستمتاع بلحظاته في هدوء وعفوية، بقدر ما أصبح مريضًا ومهووسًا بآراء الآخرين، وجلب استحسانهم واعترافهم وإعجابهم. وقد كشفت وسائل التواصل الاجتماعي هذا الأمر وساعدت في تكثيفه، لكنها لم تكن السبب فيه.

صور أعياد الميلاد والزواج والمآتم وتفاصيل الحياة اليومية لكل شخص والتي صار يزدحم بها الفضاء الافتراضي.

الإنسان في المجتمع التملكي لا يمتلك وعي بذاته ووجوده، صار ملكية خاصة للسلطة منذ لحظة ولادته، مع الوقت لا يمكن الفصل بين ذاته الحقيقية وذات السلطة (الأب، الأم، المعلم، رب العمل، الشيخ، الحاكم)،لذلك هو في بحث لا شعوري عن رضاهم واستحسانهم، ومحاولة غير منقطعة لإثبات أنه الأجدر والأفضل.

الأب في الأسرة التملكية في حالة صراع مع آباء الأسر الأخرى. وآباء الأسرة الواحدة في حالة صراع بطيء وطويل مع الزوجات والأبناء. والأبناء في حالة تنافس بيني لإثبات الذات أمام الأب والأم. الآباء ذاتهم منقسمون إلى طبقات تمتلك بعضها بعضًا وتحتقر بعضها بعضًا.

في هذا السياق التنافسي، التملكي، لا يترك الإنسان لشأنه ليشق طريقه بما يناسب إمكانياته وميوله. لذلك تأتي السهاد المرتبطة بالنجاح والإنجاز مشوهة وممزوجة بإحساس النقص والخوف والشعور بالتفوق المزيف المرتبط بعقدة النقص واحتقار الذات والآخر الشريك.

٢- السياق التملكي وتزييف الوعي.

البيان والعرفان من أبرز سمات العقل العربي واحد المكونات الأساسية لبنيته وفقًا لرؤية الفيلسوف المغربي د. محمد عابد الجابري، يمكن إيجاز سمة البيان في تقديس الإنسان للنص السلطوي وعدم القدرة على تحليله أو نقده أو حتى التشكيك في توافقه مع واقعه الاجتماعي والنفسي، ما دام المصدر السلطة بكل ما تحمله من رهبة وقداسة وآليات سيطرة وإعلام على أعلى درجة من الاحترافية. أما العرفان فهو اعتماد مؤسسات السلطة لتفسير النص، يصاحب ذلك الاعتقاد الداخلي بالقصور الذاتي والعقلي في فهم غايات النص حتى لو كان المعنى قريب وواضح.

ولكن ألا تعود تاريخية هذه البنية البيانية العرفانية إلى الأسرة الأبوية؟ إلى اللحظة الأولى التي تعرض فيها الطفل التهديد بالنبذ والهجر إذا لم يستجبْ بالطاعة الفورية لأوامر الأب والأم؟

التهديد بالنبذ يعني بالنسبة للطفل الموت، ما يضاعف شعوره بالرعب الوجودي، سيما أنه ضعيف على كل المستويات، والأب أو

الأم يمثلان وسائط حياته الوحيدة. لا يملك الطفل إلا الخضوع وإنكار إرادته، مقابل الاعتراف الوحيد بإرادة الأب ورؤيته للوجود والحياة. في هذا السياق الإرهابي، يتم طمس بل قمع كل قدرات العقل للتخطيط الوجودي الخاص والمستقل والذي يعني الخروج عن نص الأب وشروطه وبالتالي الفناء. يضاف إلى ذلك بالطبع تحقير السلطة الأبوية التملكية لكل مبادرات أفرادها الفكرية المستقلة، بل واحتقارها، مما يعمق من ضعف ثقة الأفراد في عقولهم ووعيهم الخاص بالوجود والأشياء والمحيط والتخطيط المستقل المنسجم مع إمكاناتهم.

تتحول أوامر الأب ونواهيه ورؤاه للوجود والعلاقات إلى بيان "نص" وهو الوحيد القادر على تحليل النص أو من فوضه الأب لذلك "العرفان".

الأب التملكي دائم الحرص على إثارة نزعة تحقير الذات "عقلًا وإحساسًا" للابن حتى يكون دائم الشعور بالدونية وبالتالي يرتبط نفسيًّا بتقدير السلطة الأبوية ورؤيتها الوجودية الاستغلالية.

السلطة الأبوية هنا ليست كيان هامشي يستطيع الابن الفرار منها عند الشعور بالخطر، لكنها الوسيط لحاجات الإنسان الأساسية التي بدونها يتعرض للفناء وقبله الألم والخوف. ويعد ذلك أول العوامل التي تشل عمل العقل المستقل والوعي المستقل.

لن تختلف مقاربة الأب التربوية عن مقاربة المعلم داخل المدرسة أو الجامعة كمؤسسات تربوية تملكية، وصولًا إلى الفضاء المدني الذي تحكمه آليات الرقابة على الأعمال الفكرية والمعارضة السياسية. بالإضافة إلى ترسانة القمع الفكري الحاضرة دائمًا لكل من يخرج عن حدود النص السلطوي، عصا المعلم تتحول إلى هراوة في يد ضابط الشرطة داخل معتقلات مخصصة لعقاب من حاول إعمال عقله في البحث عن حقوقه وفرديته المنهوبة.

في السياق التملكي لا يحمل الإنسان أي ثقة في عقله، بعد أن بخسته السلطة الأبوية والسياسية والدينية والاقتصادية الرأسمالية، صار هذا الإنسان ممسكًا على الدوام بذيل جلباب الأب والشيخ والفقيه والمشرع والشركة، ليخططوا له حياته الخاصة وبالطبع التخطيط دائمًا ما يصب في مصالح أقطاب المجتمع الأبوي. قوانين هذه الأقطاب نص، وحتى هذا النص لا يمكن تفسيره إلا من خلال وسائط السلطة وكهنتها. وتهم التكفير وقلب نظام الأخلاق والحكم وزعزعة الاستقرار جاهزة لمن استطاع وسط هذه العتمة التفكير وإعمال عقله واكتشاف ذاته التي تم نفيها.

يصل تزييف الوعي ذروته، عندما يتبنى إنسان المجتمع التملكي وعي السلطة القامعة، ويروي بكل فخر وثقة روايات ونصوص

كهنة السلطة، ويعمل بها مسبغًا عليها الحكمة، خصوصًا إذا ظهر منها ما يتنافى كليًّا مع حقوقه ومصالحه وسلامته.

عدم الوعي يعني عدم القدرة على تحديد حدود الزمان والمكان، وبالتالي السيطرة عليهما. يرتبط بذلك انعدام القدرة على تشكيل واستخلاص القوانين التي تتحكم بالإنسان وعلاقاته. المعرفة في المجتمع التملكي خاضعة للسلطة ودائمًا ما تقدم في شكل وصايا وآيات ومرويات مفعمة بشحنة من انفعالات التهديد والترهيب لمن يخرج عن النص أو يفكر بشكل مختلف. وأيضًا شحنات التضخيم والتفخيم والتنزيه لتاريخ السلطة المجسدة في شيخ قبيلة جبار، قهار، ماكر، قوي، وكل ما تفرع من هذا الشيخ من آباء ومستبدين. وهكذا تشوهت معرفة الإنسان التملكي بالواقع والسياق.

مجرد ارتباط حاجات الإنسان الأساسية (غذاء، أمن، عمل) بالسلطة الأبوية والرأسمالية، يجعله تابع لها دون أي شكل من أشكال العقلانية. مع حالة إنكار للظلم الواقع عليه وحالة عدم وعي بالسلطوية من الأساس. الأب والأم بالنسبة للطفل آلهة حامية وفي ذات الوقت مهددة. لذا فلا مجال أمام الطفل للتشكيك في نوايا المربي أو استخلاص مدى انحرافها التملكي. مجرد الشك يجعل الطفل في حالة رعب وشعور عميق بالذنب مهما كان حجم العدوانية المادية والمعنوية التي يتعرض لها. وهو قابل لإنكار أي

عدوانية موجهة تجاه الأب أو الأم وتحويلها إلى عدوانية موجهة ضد ذاته. يعزز ذلك سياق الرهبة والهيبة والقداسة التي يصور بها الخيال المجتمعي رموز السلطة من أب وأم وشيخ ورأسمالي وصولًا للسلطة السياسية ورموزها. وما دام النمو النفسي لإنسان المجتمع التملكي قد توقف عند مرحلة الطفولة حيث الاعتماد النفسي على السلطة الأبوية، فوعيه يظل عند هذه المرحلة مهما بلغ من العمر. فالسلطة في المجتمع التملكي تحرص بكل وسائل تربيتها المادية والمعنوية والمؤسساتية والدينية على تثبيت الإنسان على هذه المرحلة الاعتمادية التطفلية حتى لا يخرج عن الطوق ومن ثم يكتشف ما يتعرض له من قهر واستغلال. وكما يتذلل الطفل لأبيه وأمه للحصول على حاجة طبيعية، يتذلل على مدى عمره لمعلمه ورئيسه في العمل والضابط ووكيل النيابة وكل رموز السلطة السياسية والاقتصادية وصولًا إلى إيمانه الديني المؤسس على العصاب والشعور العميق بالذنب. لذلك فإن رحلة تزييف الوعي في المجتمعات الأبوية التملكية تبدأ منذ خروج الطفل من رحم أمه وتستمر حتى نهاية عمره. والنمو الجسدي والعمري في المجتمعات التملكية لا ينعكس أبدًا على النمو النفسي الذي يثبت عند مرحلة الطفولة الاعتمادية بكل خصائصها المرتبطة بالخوف والنرجسية والانفعال والتصديق الأعمى للسلطة ونصوصها. والسلطة بكل ما تمتلكه من وسائل تزييف للوعي وأيضًا بامتلاكها

لحاجات الإنسان الطبيعية تستطيع تثبيت وتعزيز وضمان استمرارية هذه الحالة الطفولية الاعتمادية وبذلك تسهل على ذاتها عملية التملك والاستغلال على مستوى الأسرة واحتكار الثروات والسلطات على مستوى المجتمع.

المجتمعات التي تجاوزت الأبوية الزراعية، لا يختلف جوهر التملك لديها، وبالتالي ما يرتبط بذلك من تزييف للوعي. إلا أن التزييف يتخذ وسائل أكثر حداثة واحترافية وتلون، انسجامًا مع التطور العلمي والرقمي. المال بإمكانه إخضاع أي قوة، حتى العلم والبحث العلمي. كما أن ارتباط مصالح إنسان المجتمعات الصناعية وكذلك الأنظمة السياسية بمصالح الشركات الكبرى (التي حلت محل الأب والمستبد في المجتمعات الزراعية)، يعزز من الولاء لسياسات هذه الشركات مهما بلغ حد إهلاكها للبيئة والمجتمع والاقتصاد. بالإضافة إلى التطور الرقمي المهول، الذي تم استغلاله باحتراف في تطوير الإعلام والدعايا وتزييف الوعي. وكما أن الانسان في المجتمعات الأبوية رقبته في يد السلطة الأبوية، فإنسان المجتمعات الصناعية وما بعد الحداثية رقبته وبالتالي في يد الرأسمالي ومديرين الشركات الكبرى لذلك فحتى التمرد له حد وخطوط حمراء وإلا عرض هذا الإنسان ذاته للخطر والتهديد المباشر.

٣- الاغتراب كأثر مباشر لتزييف الوعي والانفعالات.

لا شيء يحطم النفس ويتعبها أكثر من التواجد في مكان تدرك أنها لا تنتمي إليه، مع أُناس لا يشبهونها، ومع إهدار الكثير من الطاقات في قرارات يومية مطلوب عملها لكنها لا تطاق، لا تطاق وتُثقل الصدر!

تشيخوف

عديدة ومتنوعة المعاني التي عرف بها المفكرون والفلاسفة وعلماء النفس الاغتراب، إلا أنها تشترك في إبراز الشعور بالعجز، والشعور بالزيف أو عدم الأصالة...

الشعور بالعجز.

الإنسان المغترب دائمًا ما يشعر بالعجز. المقصود بالعجز إحساسه العميق أنه في ورطة، لا يدري كيف أحاطت به بإحكام، والأدهى أنه لا يستطيع بأي حال الخروج منها، مهما استخدم حيله وعقلانيته، مما يصيبه بالتوتر والاكتئاب والإحباط واليأس والعدوانية والشعور بالتيه والانفصال عن ذاته وعن محيطه. لسنا بصدد الحديث عن موقف أو فترة عابرة في حياة إنسان، من الممكن نسيانها ببعض العزيمة، لكنها حياة كاملة يتم معايشتها تحت ضغط هذه المشاعر القاسية، وفي الغالب تنتهي مع شعور

عميق بالسراب والخواء والحزن الغير معروف المصدر، تتسرب هذه المشاعر بوعي ودون وعي.

الشعور بعدم الأصالة.

إلى جانب الشعور بالعجز، هناك الإحساس الدائم بعدم الأصالة. أنا لست أنا، أؤدي دور فرضه على المجتمع وسلطاته، من الابن الخاضع إلى الأب المهيمن إلى الأم المملوكة والمتملكة إلى المواطن المقهور أو حتى الموظف القاهر، العامل، رب العمل. تضيع حياة الإنسان في ممارسة أدوار دون فصل حقيقي بينها وبين ذاته الحقيقية. وسط فوضى الأدوار المفروضة تندثر شخصية الإنسان الأصيلة، حتى يتملكه شعور أنه غريب عن أقرب الناس إليه في سياق لعبة الأدوار. هل يحب هذا الزوج حقًّا زوجته؟ أم ينتظر منها الأمومة وترتيب شؤون مشروعه الحياتي؟ هل يدركها كإنسانة أم يعرف فقط حاجته منها؟ وهكذا الابن والابنة والأم والمواطن والموظف؟ ماذا نمثل لبعضنا؟ هل ضاع الإنسان الأصيل داخلنا؟ هذا الإنسان الفريد من نوعه بخصوصيته وميله وفرادته؟

ماذا يمثل لنا الآخر إذا أخرجناه من دائرة الأدوار؟ وهل من السهولة بمكان الخروج من لعبة الأدوار ومحاولة التعرف على الآخر لذاته؟ أو حتى إدراك ذواتنا بعيدًا عن ما فرضه علينا الآخر مهما كان؟

ماذا بقى منا بعد رحلة طويلة في مجتمع سلطوي، أبوي، حيث تم تشكيلنا بما يناسب مصالح من امتلكنا، سواء كان هذا المالك أب أو أم، أخ كبير أو كاهن أو طبقة أو معلم تابع لنظام سلطوي أو مؤسسات تربوية أبوية ورأسمالية. هل نحن فعلًا ما نحن عليه؟ أم أننا في حالة اغتراب؟ وكيف تتجلى حالة الاغتراب تلك؟

عندما يفشل الإنسان في اكتشاف ذاته، يفشل بالفعل في تأكيدها، وعندما يفشل في تأكيدها، يصيبه وهن، وشعور دائم أن هناك شيئًا ما ينغص عليه سكينة روحه، لكنه لا يدري ماهية هذا الشيء. يحاول تعويض فراغه الداخلي (اغترابه) بواسطة المال والسلطة والأسرة والأدوار والركض والشهرة، ورغم ذلك ما زال الشعور بالسراب وعدم الامتلاء الذاتي، ما زال الشعور بالانفصال العميق عن الذات الحقيقية.

هناك من لا يعي شعوره بالعجز وعدم الأصالة، وما يرتبط بهم من إحباط وقلق وتوتر واكتئاب ووهن وحزن، يعايش هذه الأحاسيس دون وعي حقيقي بجذورها الممثلة في مجتمع سلطوي سرق منه ذاته وأصالته وحوله الى مجرد دور لاستغلاله كترس في آلة استغلال مهولة. سواء تعلق الأمر بسياق أبوي تقليدي أو حتى سياق حداثي. التملك موجود في كلا السياقين مع اختلاف النوع.

وهناك من يعي الأسباب ويدركها، لكنه رغم ذلك لا يستطيع الفكاك من أسر المجتمع والظروف. بالطبع صاحب الوعي مأساته

أكبر وأقسى؛ لأنه يدرك النهاية ولا تجدي معه أوهام الإيمان والخلاص والصبر وتبريرات التضحية والكفاح ولا يجدي معه أيضًا أوهام المال والسلطة والصراع والشهرة.

ربما تكون صرخة الطفل الوليد، فور خروجه من رحم أمه أول تعبير اغترابي له، في مواجهة وجود غامض لا يدري عنه شيئًا، ذلك بعد أن تم لفظه من أمن ودفء الرحم. هذا الشعور الأولي بالاغتراب، يضاف إلى اغتراب الإنسان الذى وعى منذ آلاف السنين مدى ضآلته وصراعه الغير مجدي مع الطبيعة ومع غريزة سعيه للبقاء وتجنب كل ما ينتهي به للفناء والألم والمرض. وجود مخيف بكل ما يحمله من ألم ومخاطر. العلاقة التملكية تضيف للإنسان اغتراب جديد ولكن هذه المرة من صنعه أو بالأحرى من ردة فعله تجاه الخوف ووعيه اليقظ بالوجود والمستقبل.

العلاقة التملكية تنتج الاغتراب عن الذات وعن الآخر.

هذا الطفل بدلًا من أن تكون أمه رحم خارجي يعطي بلا شروط، يجد ذاته أمام أم تملكية تعطي الحب بشروط وبعد تهديد بالنبذ والحرمان. ومع العمر يكتشف الأب المتملك الأول، والذي تحولت الأم بفعل قمعه إلى حارس أمين لملكيته.

الأم هبة الطبيعة للتخفيف من اغتراب الإنسان الوجودي، إلا أنها تعمق بتملكيتها شعوره بالاغتراب، ليزداد خوفه وقلقه وتوتره حتى

من الأم ذاتها. فضلًا عن الخوف العميق من الأب الخصاء. وهكذا يتشكل داخل الإنسان أول شعور بالاغتراب تجاه الآخر مبعوث رعايته وحمايته. هذا الشعور الأولي بالاغتراب تجاه الأب والأم، جوهره خوف وقلق وكبت عدواني تجاههم. الطفل بكيانه الهش لا يستطيع رد العدوانية تجاه وسائط وجوده الأب والأم وإلا فقد حياته، لذا فإنه يلوم ذاته على شعوره الأصيل بالعدوانية تجاه تهديد الأب والأم. وهذا هو الشعور الاغترابي تجاه الذات. لوم الذات وتبخيسها وانكسارها هو اغتراب معها.

هكذا يخلق كل تملك جديد علاقة اغترابية جديدة مع الآخر ومع الذات. مع الوضع في الاعتبار أن الأطراف الضعيفة "امرأة، طفل، عامل" هي الأكثر شعورًا بالاغتراب تجاه ذاتها وتجاه الآخر. المرأة والطفل الأكثر اغترابًا في حال كان الاغتراب شعور بالخوف وعدم الثقة في الآخر وبالتالي في الذات.

يجابه إنسان السياق التملكي هذا الشعور المرير بالاغتراب دون وعي في صورة قلق وتوتر واختناق وعدم قدرة على تحقيق ذاته أو اعتراف الآخر بكيانه. الأخطر من ذلك أن يصل به الأمر إلى إنكار ذاته وحقوقه وعدم الوعي بها، بل لوم ذاته على المطالبة بها، خوفًا من بطش السلطة، ليصل الاغتراب عن الذات والصراع معها إلى ذروته.

شعور الإنسان بالاغتراب في السياق التملكي، يتجسد بوضوح في عدم معرفته ماهية إحساسه تجاه الآخر هل يحبه أم يكرهه. ويصل هذا الشعور لدرجة الألم والتعقيد مع أفراد الأسرة التملكية "الأب والأم والأخ والأخت".

أوقات كثيرة، يراود الابن شعور كراهية لأبيه، لأنه يسحقه ولا يعترف بوجوده، إلا أن الابن ينكر هذا الإحساس ويكبته ويشعر بذنب شديد ويعاتب نفسه بقسوة: **كيف يكره أبيه أو أمه أو أخيه الأكبر أو أخته؟**

ما قيمة امتلاك الإنسان لكل ثروات الكون، وافتقاده لحريته واستقلاله وذاته التي تشكلت بناء على ميوله واختياراته؟

أن لب نزعة الاغتراب شعور الإنسان بالعجز وعدم الأصالة وبعده عن ذاته الحقيقية وشعوره أنه يمثل دورًا مفروضًا عليه. والحقيقة أن الإنسان الذي يسعى لتملك غيره، لن يستطيع حتى تحقيق المآرب المادية والأمنية لرفيقه؛ لأن الأمر يفوق احتماله. وهو لا يسعى لتحقيق هذه المآرب أساسًا، بل يسعى إلى تفريغ عدوانيته وحاجته إلى الهروب من مخاوفه وعجزه عن طريق سحق الآخر أو التحكم فيه. وذلك سبب رئيس في فشل علاقات المجتمع التملكي، حتى لو استمرت هذه العلاقات لأجيال، كما المجتمعات الزراعية (التي تعد الأسرة الكبيرة والأطفال التابعين لسلطة أب مالك) وأيضًا المجتمعات الصناعية الحديثة (التي انتهى فيها دور الأطفال

والأسرة) وتحولت فيها العلاقات إلى نوع من الاستهلاك العابر والحسابات العقلانية. التملك ركيزة أساسية في كلا السياقين، تملك الأب في المجتمع الزراعي، وتملك الشركة والرأسمالي في المجتمع الصناعي الحديث. وإذا كان التملك منتج أساسي للخوف وعقد النقص، فإنسان هذه المجتمعات دائمًا سيحاول الهرب من حالة اغترابه وخوفه عبر تملك الآخر والبحث عن الأمن الإجباري معه. يصطدم كل من الرجل والمرأة بآخر(نرجسي، خائف، تملكي) وبدلًا من الأمن الموعود، يزيد الخوف والشعور بعدم الأمان. تستمر العلاقات بكل تشوهاتها وعقدها في المجتمعات الزراعية حيث الأسرة عماد الإنتاج. إلا أن إنسان المجتمع الصناعي والذي تدرب على القيم الاستهلاكية، ينتقل ويقفز من علاقة إلى أخرى بحسابات عقلانية، دقيقة، تشبه حسابات حملة الأسهم. وسواء استمرت العلاقات أو انتهت، تستمر حالة الخوف المتراكم، الناتج عن التملك والشعور بالدونية والنقص وهي حالة تستدعي تغيير السياق أساسًا، إلى نحو غير تملكي حتى يستطيع الإنسان عقلنة خوفه والعثور على استقلاله الداخلي دون الحاجة لتملك الآخر والسيطرة عليه لتعويض خوفه. في تلك الحالة لن يبحث الرجل عن امرأة، تحل محل أمه أو شركته أو ضمانه الاجتماعي، بل سيشعر بالسعادة في رفقة امرأة مستقلة، لا يعاملها كمرآة لنرجسيته، بل تكون آخر مختلف، من الممكن رفقته ولكن دون

أوهام تملكية لا تمت بصلة للواقع. كذلك المرأة في سياق غير تملكي، لن تبحث عن زوج يحل محل الأب والأخ الكبير، بعد أن تم تكسير أجنحتها. ستكون إنسانه حرة، واعية، مدركة لذاتها وكينونتها. من الغير الممكن أن تقع ضحية أوهام الرجل التملكية حيث الأمن والاستتباع مقابل الإنسانية. وهكذا تؤسس العلاقات دون أوهام وأوهام مقابلة.

يقول إريك فروم أن الإنسان طاقة خلق وإبداع كما بينت الرسوم القديمة وآثار الإنسان على مدى التاريخ، فإذا تم شله ومنعه من الخلق والابتكار تحول إلى طاقة تدمير وتملك.

وذلك هو جوهر إشكالية التملك والاستبداد، تبديد طاقة الحرية والاستقلال لدى الإنسان وهدرها، وتتمثل تلك الطاقة في حرية التخطيط لحياته ومصيره بما يتوافق مع ميوله ورغباته وطبيعته. لا يقتصر الأمر على مجرد إشباع حاجاته النباتية من طعام وجنس. لو كان الأمر كذلك، لن يكون هناك أي ضرر من الاستبداد والتملك ما دام يحقق للإنسان حاجاته المادية. إلا أن الإنسان أوسع وأعمق وأشمل من مجرد إشباع غرائزه الأساسية بحكم تطوره العقلي والإدراكي والتطوري. وذلك ما يجعل من دوافع تحقيق الذات وتقديرها بحرية واستقلال دوافع أساسية، لا تقل قوة عن حاجات الغذاء وحفظ النوع. وحتى هذه الغرائز الأساسية لا يستطيع الإنسان إشباعها في سياق من القهر والرقابة والشعور

الدائم بالذنب. الإنسان في الأسرة الأبوية التملكية يتم هدر طاقاته وخلق حالة من العجز المتعلم لديه وجعله طفيليًّا، حتى يتم السيطرة عليه كأداة في يد الأب سواء كان طفلًا أو امرأة. لا يختلف حال إنسان المجتمعات الصناعية الرأسمالية، الذي يتم تملكه والسيطرة عليه عبر مؤسسات كبرى، تضعه في حلبة صراع إنتاجي مجنون، يتحول فيه الإنسان بكل ما يمتلكه من مقومات وكرامة وفعالية وقوة إلى سلعة تباع وتشتري، وتكتسب جدارتها فقط حين تكون قادرة على شراء المزيد من السلع. الإنسان في المجتمعات الصناعية مجرد ترس في آلة إنتاجية ضخمة. يمارس عمله وتخصصه تحت ضغط أهداف التطوير الإنتاجي للشركات الكبرى. لذلك يلتهمه الإحساس بالضآلة والخوف من الوحدة أو أن لا يجد لنفسه حيز وسط تروس أخرى يتم تنظيمها بدقة متناهية من أجل أرباح أقصى لأصحاب رأس المال. كما يلتهمه خوف المرض أو العجز أو حتى التوقف رويدًا للراحة. هذا الإحساس بالعجز وعدم التحكم بالمصير هو لب الشعور بالاغتراب عن الذات وعن الآخر الذي تحول إما إلى مالك (الأب والرأسمالي) أو منافس (الرفاق).

يتفق سبينوزا وماركس أن الغاية العظمى من الوجود الإنساني هي تحقيق طاقة الإنسان الكلية، بما يتناسب مع ميله ونشاطه، لذا فمن الضروري تأسيس المجتمع على أساس الميل الفردي وليس على أساس مصالح الآخر وجشعه.

الاغتراب بكل ما يرافقه من قلق وتوتر وإحباط وإحساس بعدم الانتماء للمكان والزمان والبشر، هو أعمق آثار التملك.

لا يمكن بأي حال تملك إنسان مهما كان الظاهر عكس ذلك. التملك أساسه خوف وجهل ورغبة في الاستغلال، كما أنه مشوه لأشد العلاقات تقديسًا كالأمومة والأبوة والأسرة والزواج.

رغبة الإنسان في تملك آخر نتاج أن هذا الإنسان تعرض من الأساس لمحاولات تملك مشابهة. فالاغتراب في حالة العلاقة التملكية مصدره خوف الإنسان من الآخر، سواء كان هذا الآخر ضعيفًا في سلم السلطة أو حتى قويًّا. يجد الإنسان ذاته في حالة صراع فوقي وتحتي، دون الوصول إلى حالة من الشراكة المؤسسة على حرية الآخر وحريته. وذلك هو جوهر السراب الناتج عن العلاقات التملكية، حيث الاغتراب تجاه الذات وتجاه الآخر. والمغترب عن ذاته لن يعرف أبدًا الطريق السوي والآمن إلى الآخر.

❊ ❊ ❊

الفصل السابع

نحو التحرر الفردي الداخلي

التحرر الفردي بالطبع مرتبط بالتحرر الاجتماعي وتغيير السياق وذلك هو موضوع الفصل القادم.

ولكن من بإمكانه التنبؤ متى سيتغير السياق؟ ومتى ستجتمع شروط تغييره؟ وهل هناك مؤشرات أساسًا أننا سنعاصر هذا التغيير؟

تغيير العقل الجمعي أمر مختلف تمامًا عن تغيير العقل الفردي، التنظير في ذلك الأمر في متناول اليد ولكن ضمان تغيير فعلي على مستوى الواقع، لا يلوح للبصر من قريب أو بعيد. كل المؤشرات تدل على أن المجتمع العربي المعاصر يتوغل نحو صيغة تملكية أكثر قسوة وشراسة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي الأسري والتربوي.

من الضروري التأكيد أن تغيير السياق شرط رئيس للتحرر الفردي وتخلص الفرد من كل آثار التملك المشوهة للذات والحياة.

ولكن ما باليد حيلة، إنسان المجتمع المعاصر بحاجة لقوة تأمل مهولة ووعي وعقلانية حتى يستطيع الحفاظ على توازنه في سياق صعب وضبابي.

القلق العميق والتوتر والشعور بالإحباط والهزيمة واليأس، هذا العصاب التملكي الجذور صار المادة لتجار التنمية البشرية، الذين تحولوا إلى كهنة العصر الحديث في السياق التملكي وصارت آياتهم المقدسة (ممارسة الرياضة، البحث عن معنى وهدف، الاستماع

للموسيقى الهادئة، ممارسة اليوجا، التخطيط، التنظيم، التعلم المستمر)

بالتأكيد كل ذلك من شأنه تخفيف حدة القلق داخل الإنسان، لكن لن يتعدى الأمر ذلك، ما دامت الأنا المنشطرة نشطة وتمارس دورها المنتظم في جلد الذات والشعور بالنقص الدائم. الرغبة في الربح ونزعة التجارة لم تترك حتى إشكاليات الإنسان النفسية والعصبية.

المجهود البدني على سبيل المثال، من شأنه تحويل مسار الطاقة العدوانية الموجهة ضد الذات في الرياضة، ولكن هذه الطاقة ستعود لتوجه ضد الذات بقية فترات اليوم وحتى أثناء النوم.

من غير الممكن الحصول على الرضا الذاتي والهدوء النفسي النسبي، دون إدراك آلية عمل الذات المنشطرة، والعثور على الذات الأصيلة وإعادة الاعتبار لها وتعزيزها. ومن المستحيل الوصول إلى ذلك دون خوض رحلة تأمل عميقة ويقظة مع محاولة التثقيف النفسي والاجتماعي والفلسفي الذاتي، فضلًا عن وجود سياق إنساني من شأنه توفير جهد الإنسان وصراعه من أجل العثور على ذاته الحقيقية.

وحتى في حال الوصول لجوهر الذات الأصيلة، لن تتوقف الذات المنشطرة عن تأثيرها السام ما دام السياق تملكيًّا؛ لأن تاريخ هذه

الأنا المنشطرة طويل مع الإنسان، إلا أنه في حال إدراك آلية عملها، سيخرج الصراع إلى الوعي، ذلك لأن الأنا الأصيلة ستبرز للوجود مرة أخرى، دون خجل أو شعور بالعار، وستبدأ في المقاومة والرغبة في فرض ذاتها ليأخذ الصراع منحي مختلف، لكنه أكثر إيجابية وإثمارًا وحيوية.

المرأة التي تماهت مع سلطة الرجل، خوفًا من بطشه، حتى وصل بها الأمر إلى احتقار جسدها وإرادتها ورغباتها. وصارت لا تشعر بذاتها إلا في إنكارها لذاتها عبر ممارسة أدوارها الخدمية، كجسد وأم وزوجة وأداة مقايضة أسرية وأبوية. هذه المرأة لن تستطيع التخلص من قلق جلد الذات والعصبية والتوتر والوهن الجسدي والعصبي والنفسي، بمجرد ممارسة الرياضة أو الاستماع للموسيقى، ذلك لأن أناها المنشطرة نشطة بقوة، ودائمًا ما تغرقها في موجات من العدوانية المرتدة إلى الذات. هذه العدوانية كانت موجهة أساسًا ضد الرجل وقمعه، ولاستحالة توجيه هذه العدوانية ضد مصدر القمع خوفًا من الأذى والفناء، ارتدت إلى الذات لتكون سبب قلق المرأة وغضبها واكتئابها وإحباطها.

المرأة في السياق التملكي لا يمكن أن تصل إلى حالة الاستقرار النفسي العصبي، دون الوصول والعثور على ذاتها الأصيلة، الأولية، الحرة، المحبة لجسدها وميلها ورغباتها، صاحبة الوعي والإرادة في توجيه مصيرها وإدارة حياتها. دون إدراك حقيقي للذات الأصيلة،

تظل الذات المنشطرة القائد والموجه في ظل غياب تمرد الذات الأصيلة المحتقرة والقابعة في العمق..

العثور على الذات الأصيلة، لن يقضي على فعالية الأنا المنشطرة ولكن سيواجهها ومع الوقت يضعفها، مع الوضع في الاعتبار أن الصراع سيكون صعبًا سيما أن السياق التملكي ما زال قائمًا بكل أقطابه السلطوية. ولكن اللحظات القليلة التي يعيشها الإنسان رفقة ذاته الأصيلة أمتع وأصدق من قرون رفقة القناع.

ولكن هل من الممكن أن يتخلى إنسان كليًّا عن ذاته الانشطارية أو قناعه الاجتماعي؟

في السياق التملكي، لا يستطيع إنسان الحفاظ على وجوده الآمن، دون أنا انشطارية (قناع) حتى في حالة وعيه لهذا الانشطار.

فضلًا عن أن الوعي بوجود هذه القناع، يحتاج إلى رحلة تأملية عميقة ومؤلمة، تتوازى مع ثقافة نفسية واسعة ومنظمة وقلما يتحمل إنسان مشاق هذه الرحلة.

حتى في حالة وصول الإنسان للوعي بآلية عمل القناع، هذا لا يعني قدرته على القضاء عليه كليا والتعامل بما تمليه عليه ذاته الأصيلة. لأسباب من بينها، تغول هذه الذات في النسيج النفسي لإنسان المجتمع التملكي ووصولها إلى حالة التصرف اللا واعي والتلقائي. حال المهاجر الذي قضى زمنًا طويلًا من حياته في مجتمع

تملكي، ورغم هجرته إلى سياق أكثر انفتاح وحرية وتغيره وإيمانه بذاته الأصيلة، يجد ذاته محاصرًا بتصورات مجتمعه الأصلي فيما يخص أمور كثيرة. يشعر بالذنب حال إحساسه أن سلوكًا ما يمارسه يتعارض مع قيم مجتمعه القديم. في حال وعي هذا المهاجر، سيعبر هذا الشعور سريعًا. لكنه سيجد نفسه أوقات كثيرة غريبًا أمام ذاته الأصيلة.

الخوف من ردود أفعال السلطة في المجتمع التملكي الاستبدادي، محفز دائمًا أن يتصرف الإنسان عكس إرادته ومن ثم إخفاء ميوله الأصيلة، الإنسان في هذه الحالة يواجه غريزة البقاء مباشرة. المتمرد الاجتماعي لا يستطيع الإعلان عن ذلك أمام سلطة أبوية وسياسية قامعة وإلا تحولت حياته إلى جحيم. هو رغمًا عنه محاصر بشبكة تلتف حول رقبته تشبه خيوط العنكبوت من أب وأم وأخ كبير وجار محافظ وأعمام وأخوال وصولًا إلى قمة البناء الاجتماعي من ضباط ومراقبين ونظام حديدي.

إن استمرار سياق التملك، دائمًا ما يحفز الانشطار حتى بعد الوعي به. لأن الأمر يتعلق بأمن البقاء.

رغم كل ما سبق فإن اكتشاف آلية عمل القناع والوعي به، مسألة مهمة وجوهرية في سبيل الوصول إلى العيش الصادق، النابع من الإرادة الحرة والميل الأصيل وحرية تحقيق الذات، حتى لو تم ذلك

على المستوى الداخلي مع استمرار الاحتفاظ بالقناع لاتقاء شر السلطة.

الحرية الداخلية المؤسسة على التأمل، هي السبيل الأول للتحرر الفردي والاجتماعي لاحقًا. هذه الحرية تضع الإنسان في حالة توتر ناتج عن الصراع بين وعيه اليقظ وخوفه على حياته.

هناك امرأة تعي ذاتها وحقوقها وإرادتها، مع وعيها العميق أيضًا للقناع الذي ترتديه لحماية ذاتها من عسف السلطة والمجتمع. هي تدرك تماما حالة الظلم والسطوة، تدرك أيضًا من هو المستبد الحقيقي رغم معايشتها للقمع ومجاراته. هذه المرأة تعاني بالطبع ما دام السياق يخنقها ويحاصرها، ولا تستطيع الفرار منه، لكن كل شيء في مستوى الوعي، هناك حرية داخلية ووعي وإدراك.

المرأة الأخرى (الغالبية كذلك في المجتمعات التملكية الأبوية) فهي التي تعيش على مستوى قناعها وأناها الانشطارية، التي اندمجت معها دون وعي، حتى صارت تحارب ذاتها بعد أن تبنت الأدوار التي فرضها الرجل عليها، وصارت تشعر بذنب شديد وخوف إذا تصرفت خارج الإطار الذي حدده لها الرجل. هذه المرأة تعايش الاكتئاب بكل مرارته؛ لأنها دائمة الجلد لذاتها ورغباتها، ومن ثم فعدوانيتها بدلًا من أن تتوجه إلى الخارج باتجاه مصدر القهر الذي هو الرجل، فإن العدوانية ترتد لذاتها في صورة شعور دائم بالحزن

والندم والخسارة واجترار الأحزان. وهذه هي الأسباب الجوهرية لحالة الوهن الجسدي والعصبي الذي تعاني منه امرأة المجتمع الأبوي التملكي، بجانب استنزافها في أدوار شاقة تتعلق بدورها كأم وزوجة وعاملة. في السياق الأبوي لا تفكر المرأة في ذاتها خارج هذه الأدوار؛ لأن المجتمع لا يعترف بها كامرأة إنسانة ولكن كدور، تتبنى المرأة هذا التحديد لماهيتها تحت ضغط الحصار والتملك السياسي القانوني.

لا يعني ذلك أن المرأة التي وعت وأدركت وحصلت على حريتها الداخلية، تعيش في سلام نفسي وشعور بالأمن، من الصعب جدًّا الوصول لذلك، ما دام السياق سلطويًّا ويعمل ضدها. لكنها أكثر قدرة على التمييز والتعامل الواعي مع السياق، كما أنها أكثر قدرة على توجيه طاقتها العدوانية تجاه من يستحقها. تعلن المرأة الواعية عن كراهيتها للسلطة على مستوى وعيها دون شعور بالذنب أو جلد للذات. بالطبع مع استمرار صراعها الخاص والمؤلم للحفاظ على أناها الأصيلة. إن مجرد الوعي بالذات الأصيلة واكتشاف آلية عمل التملك والقناع، انتصار كبير فيما يخص الحصول على الحرية الداخلية التي تعد الأساس لمستقبل غير تملكي.

مما سبق من الممكن التمييز بين مستويين للوعي بالأنا الانشطارية أو القناع.

المستوى الأول وهو حال غالبية أفراد المجتمع التملكي، ويتمثل في الاندماج بالقناع وعدم الوعي به، ومن ثم عدم الوعي بالذات الأصيلة، بل ومحاربتها دون وعي. كأن يشعر إنسان بالعار لمجرد أنه أحب امرأة، لا تتوافق مع مقاييس السلطة الأبوية والعائلة. وإحساس المرأة بالندم والذنب الشديد، كلما ظهر منها ما يعبر عما بداخلها سواء تعلق الآخر بسعادة أو غضب، سيما إذا تعارضت هذه المشاعر مع أعراف السلطة الأبوية. الشريحة التي تمثل هذا المستوى من الوعي، تتسم بعدم الوعي بوجود ذات أصيلة من الأساس من فرط الاندماج بالأنا الانشطارية (القناع). هل تدرك (أمينة) زوجة سي السيد أن لها ذات ودوافع وحقوق وميول وإرادة؟ أم أن كل معرفتها بذاتها هو ما أراده لها الزوج من أدور سواء زوجة أو أم أو خادمة؟

حتى الأبناء والبنات، يتم ترويضهم من الصغر على محاربة ذواتهم الأصيلة، ليصل بهم الأمر إلى حد إنكار حقوقهم الطبيعية في اللعب والاسترخاء وممارسة الحب والاستمتاع، والعمل بما يتوافق مع قدراتهم البدنية والعصبية، وحقهم في التحرك بحرية، وتقرير مصيرهم باستقلالية تامة. يشعر الطفل بذنب شديد كلما شعر بعدوانية تجاه والديه؛ لأنهم منعوه من اللعب، أو حملوه أكثر مما يطيق وأهانوه وأشعروه بالنقص. تحول الأب والأم إلى آلهة لا يمكن مراجعتها أبدًا، بل الأولى معاقبة الذات على تقصيرها وتمردها.

كذلك حال المواطن في الدولة التملكية الأبوية، الذي يعتقد أنه موجود بفضل الزعيم وعطاياه ورعايته، ولا يحق له أبدًا التمرد مهما صار به الحال..

كل فرد في السياق التملكي، يرتدي قناعه ويعتقد أنه والقناع واحد. الصراعات الداخلية لصاحب هذا الوعي تظل لا واعية ومجهولة الأسباب بالنسبة له. هو يشعر بحزن وندم وغصب واختناق دون معرفة سبب محدد لذلك. يشعر بكراهية للآخر ورغبة في السيطرة عليه دون معرفة سبب محدد لذلك. يشعر أنه السبب في كل كوارث العالم وعليه التكفير عن ذنب وجوده من الأساس. صاحب هذا المستوى من الوعي في صراع دائم مع ذاته ومع الآخر. القناع نشط في توجيه العدوانية تجاه الذات وتجاه الآخر الأضعف "جنسيًّا وعمريًّا وطبقيًّا وسلطويًّا". وذلك في سبيل التخفيف من وطأة العدوانية الموجهة تجاه الذات.

الرجل في السياق الأبوي متاح له توجيه العدوانية تجاه الأضعف، لذا تقل لديه نسب الانفجار الداخلي. عكس المرأة والتي تمنع من العدوانية والغضب وممارسة أدوار قيادية، إلا فيما يخص دورها كأم. لذا تزيد لديها نسب الاكتئاب المرتبط بالندم وتبخيس الذات. ويظل إنسان المجتمع التملكي الذي تحركه السلطة والأنا الانشطارية وقناعه في حالة بحث دائم عن مسكن لآلامه

الوجودية العميقة، يتوهم العثور عليه في الزهد والسلطة والمخدرات والدين، إلا أن الألم يستمر دون معرفة سببه المحدد.

المستوى الثاني، هو مستوى الوعي بالقناع والأنا الانشطارية ومن ثم الوعي بالذات الأصيلة. أصحاب هذا الوعي تختلف ردود أفعالهم تجاه ذاتهم والسياق، تبعًا لبنيتهم النفسية وظروفهم المحيطة الخاصة. **هناك من ينحاز كليًّا لذاته الأصيلة** بعد أن اكتشفها، ولم يعد يشعر بالعار منها، أو يعيش في حالة صراع معها، بل يحارب كل ما لا ينتمي إليها، مهما بلغ صراعه مع السياق أو تهديده أو إشعاره أنه مهمل أو منبوذ. إنه يعيش كالحيوان البري لا يقبل بمخادعة ذاته، مهما كانت المبررات، ومهما وصلت قدسية هذه المبررات. يتعامل هذا الإنسان مع الحياة وكأنه الإنسان الأول، قبل ظهور أخلاق المجتمع التملكي القاهرة لحرية الإنسان وانطلاقته. لا يقبل بتسويات على حساب حريته الفردية وميوله مهما كانت بساطتها، لا يعني ذلك رفضه للتعاون والرفقة الإنسانية، ولكن بالتعاقد والتكافل والعدالة واحترام حقوقه في الحياة. يدرك صاحب هذا الوعي أن التملك يتمظهر مع أقنعة الأبوة والأمومة والزواج وادعاءات التضحية بالذات، لذا فهو يقظ في ردود أفعاله تجاه أخلاق السلطة ومقدساتها. علاقاته مؤسسة على احترام ذاته واحترام الآخر وحريته وحرية الآخر. عدوانيته تتجه إلى مصادر إحباطه المباشرة، دون إسقاط أو تماهي أو تبني

مهما كان مصدر الإحباط. لا يحاول تحويل عدوانيته تجاه الأضعف (ابن، طفل، زوجة). حبه مؤسس على الحرية واحترام الخصوصية ورغبة الآخر في الابتعاد وقتما شاء، ذلك أنه حب غير مؤسس على الاعتمادية والتملك والضرورة.

المرحلة الوسطى (المستوى الثالث) من الوعي.

هناك من لا تساعده ظروفه، لاتخاذ هذا الانحياز الجذري لذاته الأصيلة، ويضطر إلى الاحتفاظ بقناعه، خوفًا من بطش السلطة، ورعبها من مجرد فكرة حرية التعبير عن الميول الخاصة، حتى دون أن يصل الآخر إلى حد الممارسة. هذا الإنسان معذور؛ لأن غريزة البقاء والدفاع عن الذات من الألم والتهديد غريزة أساسية، سيما إذا اتسم هذا الإنسان بالضعف في السلم التملكي لمجرد أنه طفل أو فتاة أو مواطن تهدده السلطة الأبوية والسياسية والدينية طوال فترات يومه، وحتى في منامه لا تفارقه كوابيس الفناء والتعذيب والشعور بالذنب.

صاحب هذا الوعي في درجة وسطى، بين من ينحاز كليًّا لذاته الأصيلة، ومن لا يميز بينها وبين القناع. هو مضطر للاحتفاظ بالقناع ولكن دون الاندماج به. وهو يعيش صراع ليس بالسهل، ولكن أهون ممن اندمج بالقناع؛ لأنه ببساطة حصل على حريته الداخلية، وإن لم يساعده السياق على الاستمتاع بالتعبير عنها.

لذلك تتسم أعراض عصابه بالاختناق، والشعور بالاغتراب الشديد عن المجتمع، والوهن العصبي والجسدي الناتج عن اضطراره للتمثيل أمام السلطة والسياق.

المرأة صاحبة الحرية الداخلية تعي تمامًا وجود القناع وآلية عمله، كما أنها يقظة لتمويهاته. هذه المرأة تقل لديها شحنة توجيه العدوانية تجاه ذاتها الأصيلة، وبالتالي الشعور بالذنب وجلد الذات وتبني سلطة الزوج والدفاع عنه والتبرير لسطوته واستبداده، هي تحترم ذاتها الأصيلة وكل ما ينبع عنها، لكنها مضطرة بحكم السياق وقوانينه الأبوية لمجاراة الزوج والتعايش مع عقد نقصه. لا تحب، لكنها تتعايش فقط حتى لا تفنى، وتعرض أطفالها للتحرش والفناء سيما لو اكتشفت ذاتها متأخرًا. الإنسان في المجتمع التملكي من الممكن أن يسرق ثلاثة أرباع عمره وهو منوم ومخدر ومروض من قبل السلطة. وفي الغالب لا يكتشف ذاته، إلا بعد أن تكون قيود المجتمع التملكي قد حاصرته تمامًا، وصار أبًا أو أمًا أو زوجا أو زوجة، قيود لا يستطيع الفرار منها لمجرد رغبته في ذلك؛ لأن هناك من سيشرد ويتألم خاصة الأطفال وكبار السن.

من ورطته الظروف أن يحتفظ بقناعه، يعايش شعور مرير بالاختناق؛ لأنه لن يكون قادرًا على التمثيل وارتداء القناع طوال الوقت، بعد أن أدرك أنه قناع وبعد أن اكتشف حريته الداخلية.

لكنه بالطبع سيحتفظ بقدر أكبر من العقلانية في ردود أفعاله تجاه ذاته وتجاه الأخر. ربما سيشعر بالشفقة والتسامح تجاه الجميع؛ لأنه يدرك جذور الخوف الوجودي، لكنه لن يعيش أوهام الحب التملكي (أبوة وأمومة مشوهة وتقديس للسلطة). ولن يعيش انفعالات مزيفة، من نوعية الأب المتفاني في خدمة الجميع، أو الأم التي تكبت عدوانيتها وغضبها باسم الأسرة واسم العائلة. لن يحزن ويبكي ويجلد ذاته اضطرارًا، لكنه سيحترم ذاته بكل ما تشعر، حتى لو كان هذا الشعور ينطوي على نفور من الآخر يصل إلى حد الكراهية. يستطيع صاحب الوعي التمييز بين الحب المؤسس على الاحترام والحرية، وآخر مؤسس على القمع. سيكون قادرًا على التعبير عن كراهيته (لو بينه وبين نفسه) لأي إنسان لا يحترم حريته.

❊ ❊ ❊

الفصل الثامن

اتجاه أفضل للحركة

في روايته (رحلة ابن فطومة) للروائي المبدع (نجيب محفوظ)، يعرض محفوظ لشخصية إنسان، يشعر بالوهن والحزن الشديد، لما وصلت إليه الأحوال في بلاده (دار الإسلام) من انحطاط مريب على كل المستويات الإنسانية والاقتصادية والسياسية. يقرر الرحيل لعالم أرحب، ربما يستطيع اكتشاف أسباب علة وطنه الحضارية، بعد أن يكتشف حضارات أخرى وبقاع أخرى، إلا أن مبتغاه الرئيس كان الوصول إلى دار الجبل حيث الكمال المطلق والعدل والمساواة والإنسانية الحقة. في طريقه لدار الجبل مر ببلاد أخرى، لكنه لم يستقر في أي منها، لم يجدها بالكمال الذي يعتقد أن دار الجبل تتمتع به، رغم ذلك اكتشف في هذه البقاع الحضارية المختلفة منظومات حضارية، أكثر رقيًّا وتطورًا من مسقط رأسه. بعضها يرسخ لقيم العدالة والمساواة وضمان الحد الأدنى من الحياة على حساب الحرية في رمزية للمجتمعات الاشتراكية، وبعضها يرسخ لقيم الحرية والتعددية والمساواة أمام القانون، ولكن على حساب الاستقرار والعدالة الاجتماعية في رمزية للمجتمعات الليبرالية.

لم يصل ابن فطومة إلى دار الجبل، لكنه توقف على أعتابها حيث نهاية العالم.

كنت قد اخترت لهذا الفصل عنوان (في سبيل سياق غير تملكي)، إلا أنني حذفت العنوان بعد فترة، لشعوري أن السياق غير

التملكي، شبيه بدار الجبل التي تشققت قدم ابن فطومة للبحث عنها ولم يجدها، إلا أنها ظلت حلمه الأكبر.

هل من الممكن يومًا ما انبثاق سياق لا تملكي؟

أشك كثيرًا في ذلك، لا يتعلق الأمر بتشاؤم أو تفاؤل، لكنها مسألة مؤشرات وواقع وتاريخ إنساني طويل مع التملك كأسلوب دفاعي. حتى تحول التملك إلى ما يشبه الغريزة المكتسبة.

من الضروري التزام الواقعية والتفهم العميق لما آلت إليه الذات الفردية والاجتماعية، وإذا كان التحرر الفردي الداخلي شاق كما سبق وصفه في الفصل الماضي لما يتطلبه من وعي ويقظة وإبحار عكس رياح الوعي الجمعي التملكي. فإن التحرر الاجتماعي أصعب وأشق، الأمر يتعلق بالتعاطي مع عقل جمعي، بكل ما يمتلكه من مخزون تاريخي مهول، وتوجيه من ترسانة قانونية وتوعوية سلطوية تضرب بجذورها في التاريخ والوعي الجمعي، عادات وتقاليد ومقدسات وتابوهات ووسائل قمع وترهيب وترغيب ومؤسسات دينية وتربوية وطائفية وعسكرية.

لذا فضلت اختيار عنوان (اتجاه أفضل للحركة) وهو عنوان مقتبس من الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل، ذكره في الفصل الختامي لكتابه (نحو إعادة تأسيس البناء الاجتماعي) وسوف أعرض لأفكاره لاحقًا.

رغم الانفتاح السياسي والثقافي والفكري الذي تتميز به بعض المجتمعات الغربية، إلا أن (راسل) عبر عن صعوبة التغيير العاجل على مستوى الدولة وطرق التربية وملكية القلة وعوز الأغلبية. ذات الصعوبة عبر عنها المفكر(إريك فروم) في الفصل الختامي لكتابه (الإنسان بين الجوهر والمظهر) عندما تساءل عن إمكانية تأسيس مجتمع إنساني جديد، منزوع التملك ومفعم بالكينونة، هل من الممكن تدشين ذلك وتخلي الإنسان المعاصر عن قيم الربح والخسارة والتنافس؟

كانت إجابته القاطعة بلا، إلا إذا تعلق الأمر بالحياة أو الموت.

هذا على مستوى المجتمعات التي وصلت إلى حد نسبي من التطور الاقتصادي والسياسي.

فما بالنا بمجتمعنا العربي الذي لم يتجاوز بعد المرحلة الأبوية!!!

البحث عن حلول فيما يخص المجتمع العربي، بحاجة لتواضع شديد وواقعية، وتفهم لحالة السكون الحضاري المقيت الذي يعاني منه، لأسباب تتعلق بفترة الاستعمار الطويلة التي عانى منها، خلالها انطلق المستعمر وتفوق اقتصاديًّا وعلميًّا، ولضمان استمرارية تفوقه، رسخ لتبعية وتخلف البلاد المحتلة حتى بعد تحررها الشكلي. ساهم الاستعمار في ترسيخ حكم النخب التقليدية الأبوية، التي حافظت على البنية الأبوية الاستبدادية مهما ارتدت

هذه النخب من عباءات حداثية اشتراكية كانت أو ليبرالية، هذه الحالة الحضارية المتردية، أطلق عليها الباحث الفلسطيني (هشام شرابي) اسم الأبوية المحدثة. وهي محدثة؛ لأنها تتزين بديكور حضاري من مؤسسات نيابية شكلية ودستور وطني وفصل شكلي بين السلطات. إلا أن الجوهر أبوي، استبدادي، طبقي، عسكري. المظهر حداثي والجوهر أبوي.

إذن الحديث عن التغيير في السياق العربي بحاجة للبدء من الصفر. فمهما عانت المجتمعات الغربية من إشكاليات خاصة بتوزيع الثروة والرأسمالية الربحية الجشعة التي تتحكم بالديمقراطية والوعي وشعوب العالم والمناخ والطبيعة، إلا إنها تمتلك أساس علمي ونقدي ومؤسسي تستطيع الاتكاء عليه أو يستطيع المصلح في هذه المجتمعات الاتكاء عليه.

لا يمتلك المثقف في المجتمع العربي أسس قوية يمكنه الاتكاء عليها، سواء تعلقت هذه الأسس بالنظام السياسي أو الدولة أو المؤسسات أو حتى المجتمع المدني. على مدى عقود، جرفت النخب الانتفاعية التابعة والحاكمة المجال السياسي والاجتماعي والقانوني والتربوي، ورغم وجود بنى مادية إلا أنها لا تمتلك أي جوهر. شكليًّا يوجد فصل بين السلطات، إلا أن السلطة الحقيقة في يد رأس النظام السياسي، الزعيم الفرد. شكليًّا يوجد انتخابات رئاسية ونيابية، ولكن الصندوق وحتى من يرشح نفسه أمام المستبد، من

الضروري أن يكون من اختيار المستبد ذاته، لتخرج تمثيلية الديمقراطية في أبهى صورة ديمقراطية. أعضاء المجالس النيابية والمحافظين وموظفي الدولة، مجرد سكرتارية للنظام الحاكم. على الجانب الآخر المعتقلات جاهزة بأحدث الوسائل لمن تسول له ذاته نقد التمثيلية أو رفض المشاركة فيها. ثروات الوطن يتم السيطرة عليها لصالح الفئة المستغلة التي تتحصن بالدعم الخارجي للأقطاب الرأسمالية، والتي بدورها تتقاسم الثروات مع النظام الحاكم وحاشيته. المدرسة والجامعة والمسجد والكنيسة، مؤسسات في خدمة النظام، وحتى القدر التعليمي والتربوي يتناسب مع خطط ترسيخ أرضية النظام، لا خطط تطوير الوطن والإنسان.

إذن المثقف الذي يسعى للتغيير في هذا السياق الصعب، لا يدري بالضبط إلى من سيتوجه بالحديث. إلى أي جهة يوجه هذا المثقف نصائحه الودية جدًّا والتي لا يبغي بها إلا مصلحة الإنسان والوطن؟

النظام الحاكم المستبد والأبوي ابتلع الدولة بمؤسساتها وثرواتها وإمكانياتها. ومهما بذل المثقف أو المنظمات المدنية المستقلة من جهد لا يكفي. لأن خيوط الوطن كله في يد النظام القائم على شؤون الدولة. قوة الفرد والمنظمة المستقلة لا شيء بجانب المدرسة والجامعة والمسجد والكنيسة والإعلام الحكومي الموجه

ووسائل الترغيب والترهيب السلطوية. النظام الحاكم المستبد والأبوي بإمكانه إفساد أي خطة إصلاح ترتبط بنقابة أو حزب مدني أو حتى منظمة مستقلة هذا إن سمح باستمرار عمل هذه المنظمات أو الأحزاب.

في ختام مؤلفه عن المجتمع الأبوي، راهن المفكر الفلسطيني هشام شرابي على إمكانية الإصلاح من الداخل وتوحيد جهود المؤسسات المدنية الصحفية والنقابية والمستقلة، إلا أن التجربة أثبتت أن النظم الفاسدة القائمة، من الصعب أن تغير من ذاتها داخليًّا حتى لو وصلت أوضاع الأوطان إلى الحضيض بل العكس هو الصحيح. كما أن النظم الفاسدة لا تعطي أي فرصة لنمو مجتمع مدني معارض ومستقل إلا ما يتصل بأهداف مرحلية أو ضغوط خارجية.

النظام الحاكم الأبوي التملكي، يغذي قنوات التملك المتعلقة بسيطرة الرجل في الأسرة وسيطرة موظف الأمن في كل المؤسسات. الدستور يتضمن الفصل بين السلطات، مجانية التعليم، المساواة بين الرجل والمرأة، حق التعبير والاعتقاد والعمل وحقوق الطفل. وحق الشعب في اختيار من يمثله. إلا أن الواقع مخالف تمامًا وكأن الدستور قد تمت صياغته لتشكيل ديكور مدني يداري بها النظام الحاكم عواره الإنساني.

من مصلحة النظام بالطبع استمرار المنظومة الأبوية التقليدية؛ لأنها الوحيدة التي تعزز وتدعم دائرة التملك والاستبداد المغلقة.

الأب المستبد يعزز طاعة الأبناء وخوفهم من سلطة النظام. الأم الخاضعة تنتج أجيال خائفة، تابعة للسلطة الأبوية. تكبيل طاقة المرأة، تكبيل لطاقة بناء الأوطان والبشر. المرأة الحرة، البناءة، المستقلة، المحبة للحياة تنتج أبناء مفعمين بالطاقة والحياة والبناء والرغبة في التغيير وجلها قيم تتنافى مع جشع وقمع واستغلال السلطة.

عندما انتفضت شعوب الربيع العربي بكل سلمية كتعبير عن رفضها للقمع والاستغلال والاستبداد. تم قمعها وحرق الأرض من تحتها باستغلال ورقة الأمن والاستقرار الذي تعرف الأنظمة المستبدة كيفية التلاعب بها نظرًا لطول خبرتها بالاستبداد. قايضت النظم الشعوب، الحرية أم الأمن؟ واختارت الشعوب الأمن بحكم غريزة البقاء بعد أن تم إنهاكها سنوات كشكل من أشكال تصفية الحساب.

في مجتمعات أخرى تم استغلال الثورات السلمية لتقسيم الشعب بما ينسجم مع مصالح القوى الإقليمية والعالمية، سوريا وليبيا مثال.

انتهت حقبة الربيع العربي، إلى شتاء قارص من الأنظمة المستبدة الأبوية أكثر فتكًا وتبعية وتملكية. ومعها اندثر الأمل في الحل الثوري.

الإصلاح من الداخل والثورة حلول لم تفلح في تغيير الأنظمة الأبوية. هل هناك حلول أخرى؟

وهل بالإمكان الحديث عن اتجاه أفضل دون وجود نظام حكم منفتح ويعمل لصالح الإنسان أو الوطن؟

قبل الولوج للخطط الإصلاحية التي عبر عنها المفكرون والفلاسفة على المستوى العالمي والمحلي من الضروري وجود دولة قائم على شؤونها نظام مثقف، واع. نظام يحمل رسالة ويضع نصب عينيه الإنسان والوطن لا السلطة والثروة والحاشية والفئة والقبيلة. نظام يضع الأولوية لتحطيم البنية الأبوية التملكية المستغلة وبالتدريج تأسيس بنية إنسانية تستوعب الوطن بكل طبقاته وفئاته من نساء وأطفال وشباب ورجال. نظام لا يعتمد على ترسيخ أي نزعة تملكية بالاعتقال والترهيب والترغيب. نظام مدني يستغل مؤسسات الدولة من هيئات تنفيذية وتشريعية ومؤسسات تربوية لبناء الإنسان وتشجيع الإنتاج وتنمية الحس النقدي والاستقلال وقيم احترام الآخر وتقديس حريته سواء كان هذا الآخر طفل أو امرأة أو مختلف دينيًّا. نظام يحترم المرأة على مستوى الجوهر لا الشكليات ويدرك أن المرأة المستقلة المستنيرة، الواعية هي أساس رجل مستقل، يقظ، حر. وأساس مجتمع مترابط، منسجم، صحي.

إشكالية أخرى أعتقد أنها ترتبط ارتباط وثيق بأنظمة الحكم الأبوية في المجتمعات العربية وما شابهها من مجتمعات وهي إشكالية ترسيخ ودعم الدول الكبرى لأنظمة الحكم الديكتاتورية في دول العالم الثالث. هذه الإشكالية تلقي بظلالها على التملك كإشكالية عالمية ربما خلعت الرداء الأبوي في المجتمعات الأوروبية إلا أنها استبدلته برداء رأسمالي ليبرالي لا هدف لديه سوى مزيد من الإنتاج، مزيد من الاستغلال، مزيد من الأسواق، مزيد من الربح. وما دامت أنظمة الحكم الاستبدادية تقوم بدورها في تغييب شعوبها وتنفيذ سياسات إدارات الشركات الكبرى في تحويل الأوطان إلى أسواق والشعوب إلى حفنة من المستهلكين البؤساء، فلا بأس من دعم هذه النظم وتمويلها بصرف النظر عن سياساتها التي تتنافى مع أبسط الحقوق المدنية التي يتباهى بها الغرب. بل تصل الوقاحة إلى قلب أي نظام إنساني مدني يعارض سياسات الاستغلال الغربية، تشيلي الليندي مثال. ولأمريكا مناهج متخصصة في كيفية تنفيذ ذلك.

بالطبع هذه السياسة الغربية الجشعة تشكك بقوة في مصداقية أنظمة الحكم الغربية حتى تجاه شعوبها حيث رأس المال يدير المنظومة بأكملها من مؤسسات وهيئات ومجالس وجامعات وأعلام بإمكانه تزييف الواقع بأحدث الوسائل العلمية والنفسية. وعلى حد تعبير تشومسكي الربح فوق الشعب. ورغم تملكية أنظمة

الحكم الغربية إلا أنه لا يمكن اختزال الميراث الثقافي التنوير الغربي (من عصر النهضة حتى الآن) في تلك الممارسات. ولكن ما يحدث على المستوى العالمي من استغلال سيئ للطبيعة وتلويث للمناخ واستغلال لشعوب العالم يؤكد أن هذا الإرث الحضاري والإنساني والعلمي الكبير تم استغلاله وقمعه والتلاعب به بواسطة رأس المال.

في اعتقادي لن يتم تحرير مجتمعات دول العالم الثالث من أنظمتها الأبوية سوى بتحرير مجتمعات الدول الكبرى من فساد واستغلال رأس المال الربحي الجشع لأنظمتها مهما ادعت هذه الأنظمة من ديمقراطية وحداثة.

وكما أن أنظمة المجتمعات الأبوية تغذي التملكية في مجتمعاتها على مستوى الأسرة والمجتمع عمومًا. فأنظمة الحكم الغربية الاستغلالية تغذي تملكية الأنظمة الأبوية في المجتمعات النامية لتتشكل دائرة تملكية مغلقة على مستوى العالم وعلى مستوى الإقليم الواحد حيث يستغل القوي الأضعف أبشع استغلال. ورغم سخونة الأرض، وجفاف الأراضي واندثار مدن، واللجوء والجوع والحروب إلا أن قصر النظر التملكي (الذي يؤججه الخوف والجشع وعقدة النقص الوجودية) ما زال يمتلك الكلمة العليا حتى الآن.

وما يحدث في غزة الفلسطينية دليل ساطع على إحكام إغلاق دائرة التملك وعمق قصر النظر السلطوي والربحي فيما يخص الأنظمة الغربية أولًا وهوامشها السوقية من أنظمة محلية وإقليمية. على مدى شهور تم استباحة حياة أكثر من مليوني رجل وامرأة وطفل دون جيش دفاع. أكثر الأسلحة تطورًا وشراسة تقصف وتبيد وتهدر مواطنين مدنيين ليس لهم أي ذنب سوى أنهم وقعوا في مصيدة ورثة القبلية الهمجية والتي ما زالت تحتفظ بأبشع درجات العدوانية، تلك التي ترتبط بالقبائل الصحراوية البدائية والتي يؤججها خوف غير عقلاني على الكل والمأوى. رغم مياه كثيرة جرت في نهر التاريخ البشري إلا أن هذه القبيلة الهمجية لم تستطع حتى الآن التخلي عن جبنها وتندمج بالحياة والأحياء. ويغذي هذه النزعة مقدسات ومرويات تم استغلالها سياسيا لاحتلال واغتصاب فلسطين. القبيلة الصهيونية تقتل وتعذب وتغتصب وتهجر بفخر قبلي بدائي بل ومقدس بالطبع دون أي إحساس بالذنب، هي تعتقد أنها تنفذ إرادة الله الذي يرمز لشيخها مهما كان اسمه المقدس.

طالعتنا قنوات الأخبار يوميًّا على مدى شهور بمشاهد في غاية الأسى لأطفال رضع يأكلهم الدود على أسرة مستشفيات تم قصفها بعد قصف البيوت وخداع السكان بتهجيرهم من الشمال إلى الجنوب ثم قصفهم. إبادة جماعية وخطة منظمة للتهجير والإبادة

والتخلص من السكان الأصليين بواسطة نظام يميني متطرف عقله توقف عند صراعات بني إسرائيل القديمة في الصحراء في حروب صفرية لتصفية الآخر. عشرون ألف قتيل ثلاثة أرباعهم من النساء والأطفال في أقل من شهرين.

ولأن إسرائيل تعد الحارس المحلي للأنظمة الغربية في المنطقة ولأنها متغلغلة في السياسة والاقتصاد الغربي، ايباك مثال. ولأنها من بيدها اختيار قادة هذه الأنظمة أو تشويههم بواسطة المال السياسي، لم يتحرك قادة هذه الأنظمة لمنع إسرائيل من خطة الإبادة الجماعية التي تنفذها إسرائيل أمام العالم على المكشوف في تحدٍ واضح للشعوب والأمم المتحدة بكل هيئاتها. وضامن إسرائيل الرئيس في حرب الإبادة هذه الأنظمة الغربية التي سارع قادتها بالسفر إلى إسرائيل لتقديم فروض الولاء والطاعة ولضمان استمرارية سطوتهم في المنطقة وفي أوطانهم ذاتها. ولا يستطيع قادة الأنظمة المحلية سوى التنديد الرفيق حفاظ على ماء وجوههم أمام الشعوب أو لاستغلال القضية لمكاسب سياسية، كأن يت تخويف شعوبهم من إسرائيل كوحش شرس لن يحميهم منه سوى الأنظمة المستبدة. وعلى الشعوب الاختيار إما تركهم لإسرائيل تنهشهم أو الرضوخ للاستعداد؟

إسرائيل هي أسطع مثال على ازدواجية المعايير لدى الأنظمة الغربية واستعدادها التام لتجاهل أي اعتبارات إنسانية أو

حقوقية عندما يتعلق الأمر بالربح والسيطرة والغاز والموارد. أما دعوات وتظاهرات المنظمات والأفراد داخل الغرب ذاته، الإعلام وأرباح الشركات العابرة للقارات، كل ذلك كفيل بتهدئة الأجواء.

إشكالية التملك والاستغلال والاستبداد في المنطقة العربية ترتبط ارتباط وثيق بتملكية الأنظمة الغربية التي استبدلت الرداء الأبوي برداء حداثي لم يرَ منه العالم الخارجي سوى المظهر والشعارات وازدواجية المعايير.

ملاك القول، النظام السياسي المثقف والمستعد للعمل لصالح الإنسان بجانب نظام عالمي يتسم بشيء من الإنصاف والعدالة، أسس قبلية لأي حديث عن الإصلاح وإلا لأي جهة نتوجه بالحديث؟ الاستمرار في ترديد تعبيرات الإلزام من قبيل، ينبغي، يجب، من الضروري، دون تحديد الجهة التي نتوجه إليها بذلك، يعتبر هروب وغرق في تقمص دور المواعظ الذي اتخذ من النصيحة شكل من أشكال السلطة والتعالي والتحويل لعقد نقصه وضعفه.

❊❊❊

الفصل التاسع

رؤى إصلاحية

في السطور التالية عرض لرؤى بعض المفكرين فيما يخص التغيير الاجتماعي والثقافي والنفسي. ورغم تباين السياقات إلا أن أرق التغيير على مستوى النظام والأسرة والذات يكاد يكون المشترك الرئيس بين تلك الرؤى.

١- برتراند راسل، وإعادة تأسيس البناء الاجتماعي

في كتابه المهم إعادة تأسيس البناء الاجتماعي يحدد راسل عناصر محددة، يعمل على تحليلها وتعريفها وما يكتنف المجتمع من تشوهات نفسية واجتماعية جسيمة إما لسوء استخدام هذه العناصر أو قمعها أو تشويهها بواسطة نزعة التملك الإنسانية.

أولًا: النمو

يعتبر راسل النمو الحر، خاصية الكائن الحي الأساسية لا سيما الإنسان.

(هناك ثلاث قوى تقود إلى الحياة ولا يتطلب اكتشافها تلك الموهبة الخارقة. هذه القوى يمكن أن تشيع إلى درجة كبيرة في ظل ظروف اجتماعية أفضل وهذه القوى هي الحب وغريزة البقاء والابتهاج بالحياة. تضعف هذه القوة وتئن تحت وطأة الظروف الحاضرة)

هذه القوى الحياتية يتم قمعها تحت تأثير الخوف وأسلوب الإنتاج وما يخلفه ذلك من تملك ومحاولات لتشكيل الإنسان بما يتناسب مع مصالح سلطة الأسرة الأبوية والنظام السياسي الشمولي

(إن أكثر مؤسساتنا تأسست على الظلم والتسلط ولا يمكن أن نتحمل الاضطهاد والاستظلام الذي نكسبه من تلك المؤسسات إلا إذا أغلقنا عقولنا ضد الحقيقة.

يجبر المنهاج الاقتصادي أكثر الناس على تنفيذ مآرب الآخرين، ويجعلهم يشعرون وكأنهم عجزة عن العمل، فتقتل هذه الأشياء الروح في المجتمع والقوة في النظر الكريم إلى العالم) (راسل، إعادة تأسيس البناء الاجتماعي)

ويؤكد راسل على أهمية أن تدرك الأنظمة والنظم التربوية جوهرية عنصر النمو الحر للإنسان بما يتناسب مع ميوله وإرادته هو لا إرادة الآخر والسلطة.

(ميول الرجال والنساء ورغائبهم تنبثق من عنصر أساسي للنمو، ذات قوة غريزية ملهبة تدفعهم في وجهة معينة كما يطلب الشجر النور) (راسل، إعادة تأسيس البناء الاجتماعي)

بل يؤكد راسل أن وظيفة المؤسسات الاجتماعية والسياسية ضمان أن يتحقق هذا النمو بكل أريحية، وسن القوانين التي تضمن ذلك، وتمنع كل شكل من أشكال الاستغلال والتملك والقمع لميول الإنسان.

(وجل ما تستطيع أن تفعله المؤسسات الاجتماعية من أجل الفرد هو أن تجعل نموه حرًّا وحيويًّا ولا ترغمه على النمو وفقًا لإنموذج إنسان آخر)

(الناس كالأشجار يتطلب نموهم أرضًا وقدرًا وافيًا من الحرية من الطغيان، تساعد المؤسسات السياسية في تحقيق هذا المطلب أو في إعاقته.

لم تعد الطبقات المحرومة تنظر إلى المؤسسات التي تفسح مجالًا أوسع أمام بعض الطبقات وتحرمها على طبقات أخرى على أنها مؤسسات عادلة)

(لقد سمحت مؤسسات القرون الوسطى لبعض الأشخاص المحظوظين كي ينمو بحرية، بينما تركت الأكثرية الساحقة تخدمهم، لقد أصبح سحق الفرد وإقصاؤه شيئًا حتميًّا.

من الضروري أن تتغير مؤسساتنا لكي تجسد الاحترام الجديد للفرد وحقوقه).

وفي ختام حديثه عن عنصر النمو يبرز راسل إمكانية حضور شخصية إنسانية سوية نفسيًّا في حال رعاية هذا العنصر الجوهري الحي وذلك على مستوى العلاقة مع الذات ومع الآخر رفيق الوجود.

(عندما لا يجد الإنسان شيئًا يحجب نموه، يبقى احترامه لذاته سليمًا ولا يجد ضرورة؛ لأن يعتبر الآخرين أعداءه ولكن عندما يعاق نموه لأي سبب من الأسباب أو عندما يفرض عليه أن ينمو بشكل ملتو وغير طبيعي، تصور له غريزته البيئة عدو فيمتلئ

كراهية لها عندئذ يهجره حب الحياة ويأخذ الحقد مكان الشعور الصداقة)

ثانيًا: التربية والاحترام

يرى راسل ارتباط التربية بالاحترام وهو ارتباط وثيق وجوهري. ويقصد بالاحترام (تمكين الأولاد من الاختيار بين الفئات بشكل عقلاني وجعلهم قادرين على التفكير الشخصي، لا الالتزام بأفكار معلميهم) (راسل إعادة تشكيل البناء الاجتماعي)

إلا أن الواقع التملكي الاستغلالي يثبت العكس وهو استخدام التربية كسلاح سياسي (تسيطر المؤسسات المهددة بالانهيار على آلة التعليم وتغرس في نفوس النشء القابلة للانطباع بسهولة احترامًا لامتيازاتهم، لا يأخذ أي طرف الأولاد ذاتهم بعين الاعتبار)

ويبرر راسل منهجية مؤسسات المجتمع التملكي في قمع حرية- الآخر المواطن الابن المرأة الطفل - بالمحافظة على النظام القائم الذي يعتمد على التبعية للأقوى وتنفيذ رغباته وما يصاحب ذلك من قتل لروح الاحترام. وذلك هو الدافع السياسي للتربية التملكية القامعة والكابحة لحركة النمو الذاتي.

(بالكاد يصرف أي جهد لتعزيز النمو الداخلي في العقل والنفس، يفرغون من الميل ولا يبقى فيها إلا بعض الاستعدادات التلقائية التي تحل محل التفكير الحي)

يعرض راسل للدور الخطير الذي تلعبه المؤسسات التملكية في كبت البحث الحر لدى النشء وما يترتب على ذلك من جمود ودوغمائية وثبات في حركة التغيير الاجتماعي لمصلحة الفئات المستغلة. (لا مفر من قتل البحث الحر طالما يكون هدف التربية خلق موقف بدلًا من خلق فكر، ودفع النشء إلى التمسك بآراء إيجابية في مواضع يملؤها الشك بدلًا من تركه يكتشف هذه الحقيقة بذاته وذلك بتشجيعه على تقليب رأيه بحرية. يفترض بالتربية أن تغرس الرغبة في معرفة الحقيقة وليس الاعتقاد بأن عقيدة ما هي الحقيقة)

في السياق ذاته يحلل راسل إستراتيجية السلطات التملكية في محاصرة عقل الطفل وروحه وذلك بتنمية المخاوف والتسلط المرتبط بالإرهاب والتخويف من محاولة الخروج عن الطوق واكتشاف حقائق مغايرة لتلك التي ترسخها السلطات.(كان من الضروري تمويه طبيعة الطفل من خلال تنمية المخاوف التي تعطل نمو الأفكار الجديدة، وتكون النتيجة فيمن تغط عقولهم في رقاد عميق تعصبًا كلي القدرة)

الأخلاق في السياقات التملكية تنجسد في قيم (الطاعة والتنظيم والتهافت على الصراع المادي والإيمان المطلق بحكمة المعلم وتقبلها بشكل كلي. هذه العادات كلها ضد الحياة)

ويخلص راسل لأهداف اساسية من الضروري لأي نظام تربوي إنساني يسعى لتخفيف حدة التملك لدى الإنسان أن يرسخها. (بدلًا عن الطاعة والتنظيم يجب المحافظة على الميل والاستقلال. وبدلًا من التهافت القاسي، يجب على التربية أن تنمي العدل في التفكير. عوضًا عن الاستهزاء يجب أن نغرس الاحترام وبذل الجهد من أجل الفهم. يجب أن يكون هدف التربية تحريك الشك البناء وحب المغامرة العقلية)

ويتوجه راسل بالحديث إلى المعلم الذي من الضروري أن يعي مغزى وجوده لا كسلطة تفرض الطاعة وتسعى لفرض القبول والتسليم والطاعة بل كوسيط إنساني يأخذ بيد الطفل بكل احترام لاكتشاف ذاته بكل حرية وتزكية نموه الشخصي.

من الضروري أن يخرج المعلم من دائرة كبت المعرفة العفوية لدى الطلاب وتوفير الوقت والجهد لإثبات ذوقهم الفكري بدلًا من إغراقهم في رتابة طويلة من تلميحات امتحانية وحقائق كتب مدرسية.

هذا المعلم الذي يحترم الآخر الإنسان سوف يدرك ويشعر (بأن في كل ما يحيا وخاصة الكائن البشري وفوق كل شيء الأطفال شيئًا مقدسًا غير قابل للتحديد والتعريف، شيئًا فريدًا وثمينًا بشكل غريب. سيشعر أنه يجهز الولد ويقويه ليس من لأجل غاية خارجية

تقترحها الدولة أو أية سلطة، بل من أجل غايات تصبو إليها بغموض نفس الولد ذاته. يستطيع الإنسان الذي يحركه شعور كهذا أن يتقلد سلطة المربي دون أن يدوس على مبدأ الحرية)

يعرج راسل أيضًا على عامل مهم من شأنه تضخيم النرجسية الاجتماعية لدى الطفل وبالطبع يصب ذلك في مصلحة السلطات التي تبغي في النهاية التوجيه الانفعالي للطفل وتعزيز شعوره بالخوف والخطر من الآخر كمحاولة لاستغلال الطفل والسيطرة عليه ضمن مبدأ الأمن مقابل الحرية. هذا العامل هو تدريس مادة التاريخ بشكل انعزالي ومضطرب.

(التاريخ في كل دولة يعظم تلك الدولة، يعلم الأولاد كي يعتقدوا بأن دولتهم كانت دائمًا على حق وأنها تتفوق في كل النواحي على الدول الأخرى. وهكذا يعلم الأولاد المساكين بالتحريف والتسيير. من شأن ذلك أن يشجع نمو الأفكار غير الصحية، كما يهيئ نفسية الطفل لمزيد من الصراع والمنازعة ويخدم أهداف القومية المتطرفة)

في نهاية عمله العميق والمختلف يعبر راسل عن إدراكه للمصاعب التي تكتنف العمل الإصلاحي في سياق له تاريخ طويل مع التملك والخوف والسلطوية. إلا أنه لم يفقد الأمل في إمكانية الوصول لاتجاه أفضل للحركة والنمو الإنساني الصحي المؤسس على الاحترام.

(ولطالما نفكر بالمستقبل القريب، فإن ما نستطيع القيام به يبدو قليلًا جدًّا. لا نستطيع هنا والآن خلق طرق جديدة في التربية أو وضع نهاية لسلطان الحرب والتملك والملكية والاستبداد)

(يجب أن نعترف ان العالم تسوسه روح غير صحيحة وإن تحولا في الروح لن يأتي في لمح البصر).

(يجب أن لا تكون توقعاتنا من أجل القريب، بل من أجل الزمن الذي يصبح فيه فكر القلة فكر الكثيرين العادي.

الرؤى الكبرى (كالديمقراطية والاشتراكية والتسامح الديني،) كانت تدين بنشأتها إلى عدد صغير من المنظرين المنعزلين. إن قوة الفكر في المدى البعيد هي أكبر من أية قوة إنسانية).

(على أولئك الذين يتمنون كسب العالم بالفكر أن يقتنعوا بخسارته كدعامة في الوقت الحاضر).

(يصرف كثير من الناس حياتهم دون تساؤل، لا يتناسب التفكير الجديد عن العالم مع هذا التسليم المريح. وإنما يتطلب بعض الترفع الفكري والطاقة الانعزالية التي لا تعني ازدراء الآخرين بل الرغبة في الاتحاد معهم.) (راسل، إعادة تشكيل البناء الاجتماعي)

(ليس ما نحتاجه مدينة فاضلة وإنما اكتشاف اتجاه أفضل للحركة وهناك أساسان للحكم على الاتجاه الصحيح يمكن تطبيقهما دائمًا:

١ - يجب تسهيل النمو والحيوية في الأفراد بقدر المستطاع.
٢- يجب أن نتحاشى بقدر الإمكان أن يكون نمو الفرد والمجتمع الواحد على حساب الآخرين.
إن الأساس الثاني حينما يطبقه إنسان في معاملته مع الآخرين هو أساس الاحترام. أي أن حياة إنسان آخر ذات الأهمية التي نعطيها لحياتنا).

٢- التعاون ومعنى الحياة، رؤية الفريد آدلر.

تتفرد رؤية آدلر أنها نتاج دراسة تحليلية للذات البشرية، آدلر من معاصري فرويد، ومن أهم رواد اتجاه التحليل النفسي رغم تعبيره عن اختلافه مع فرويد في محاور شتى. أسس آدلر علم النفس الفردي وهو فرع من فروع علم النفس له خصوصيته وأهميته الكبيرة وذلك لنظرته الشاملة للإنسان بعيدًا عن حصره في كونه ضحية لعقد وعصابات نفسية محددة، كتلك المتعلقة بعقدة أوديب والعلاقة الجنسية المكبوتة مع الأم وعقدة الخوف والخصاء من الأب. خرج آدلر من هذا الإطار ليفتح باب للأمل والانطلاق أمام الإنسان في حال تفهمنا الذات والسياق والطريقة الصحية للتفاعل بينهما وذلك بالتحليل والتجربة والمنهج.

في تحليله للواقع الإنساني لا سيما الذات الإنسانية، يوضح آدلر أن الإنسان بخصوصيته النفسية والتطورية والاجتماعية خاضع لثلاثة ظروف اضطرارية.

الظرف الاضطراري الأول: أننا أعضاء في الجنس البشري الذي يسكن الأرض.

(أننا نعيش على سطح كوكب صغير، وعلى هذا فإننا المفروض أن نعيش في حدود هذا الكوكب بموارده المحدودة ومحاولة تطويرها، وأيضًا تطوير أجسامنا وعقولنا حتى نستطيع الاستمرار).

(من الضروري دراسة نقاط ضعف الجنس البشري، والجسم البشري والتي تشكل خطرًا عظيمًا على قدرتنا على الاستمرار في الوجود والحياة)

الظرف الاضطراري الثاني: كل واحد عضو في جماعة البشر.

(وجودنا مرتبط بوجودهم، مرتبطين ارتباطًا وثيقًا ببعضنا البعض، وهي رابطة تمثل في أهميتها الحياة نفسها، دون هذه الرابطة الحياة نفسها لن تستمر. إن أعظم منحة يقدمها الإنسان إلى أخيه الإنسان هي منحة الزمالة، إننا في حاجة لوجود الآخرين من حولنا لإشباع حاجاتنا المعنوية)

لقد ذهب آدلر لخلاصته الواقعية المجسدة في التعاون بأسلوب واقعي، بعيدًا عن أساليب الوعظ والوصايا العشر. التعاون هنا لا يتعلق بمثالية خارجة عن قدرة الإنسان ليتم ترغيبه فيها أو إجباره أو حتى إرهابه للإيمان به، لكنه واقع حي ومعاش وبحاجة فقط لإعادة صياغته عقليًّا والعمل المنهجي، للتخلص من الملابسات

والسلوكيات الإنسانية (التملك والسلطوية) التي شوهته أو بالأحرى التي زرعت الخوف من الآخر وبل وجعلت الآخر جحيمًا.

الظرف الاضطراري الثالث: الجنس البشري يتكون من رجل وامرأة:

(وإن بقاء الجنس البشري يعتمد على كل منهما)

يلقي هذا الظرف الضوء على إشكالية العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع التملكي، وبالطبع رغبة الرجل في الاستحواذ على المرأة، كأداة، ورحم، ومربية لقوى عمله، فضلًا عن كونها خادمته التي يعتمد عليها. اختزال المرأة كوسيلة استغلال فخخ هذه العلاقة المثمرة من جذورها، وحولها إلى بستان ظاهري من الخضوع والطاعة والتعاون المزيف، أسفله بركان من الحقد المكبوت القابل للانفجار دائمًا، وإذا تأجل الانفجار فإنه يظهر في صور عدوانية محولة تجاه الأبناء والآخر الأضعف.

وفي حالة تحول مؤسسة الأسرة إلى واقع وقدر اجتماعي، فمن الضروري تحليل الواقع والظروف التي حولتها إلى مؤسسة تملكية، من شأنها إنتاج أفراد عدوانيين تجاه المجتمع ولا يجدون أي مبرر للتعاون معه، بل ويمتلكون طاقة مهولة لتحويل عدوانيتهم تجاهه، وذلك ما سيتناوله آدلر في سياق حديثه عن دور الأب والأم في أسرة تعاونية سوية.

(الفاشلون في المجتمع، كلهم فشلوا في حياتهم بسبب نقص كبير في شعورهم بمدى احتياجهم لزمالة وحب باقي أفراد المجتمع)

(إن المعنى الحقيقي للحياة هو في المساهمة التي نقوم بها لمصلحة حياة الآخرين، وهو أيضًا في الاهتمام الحقيقي والخالص، ولا يتعارض ذلك مع مصلحة الفرد وتحقيقه لذاته واهتمامه بها، والتعارض بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع قضية زائفة من الأساس)

(الزوج أو الزوجة الذي يحاول تبسيط وتسهيل وتحسين مستوى حياة شريك حياته، فإنه بصورة تلقائية يبسط ويسهل ويحسن مستوى حياته الشخصية)

البسيط والتلقائي في طريقة آدلر، معطياته الأولية الواضحة في الوصول لإقناعنا بفطرية وبديهية التعاون دون الشعور أنه ضرورة ثقيلة على النفس والذات. وربما ما جعل الأمور تصل لهذا التعقيد في العلاقة بين الفرد والمجتمع إستراتيجيات التملك والسيطرة وقمع الآخر التي اتبعها الإنسان تحت قهر خوفه، معتقدًا أنه بذلك من الممكن أن يشعر بالأمن. إلا أن دراسة وتحليل آلاف السنين من التاريخ التملكي تثبت العكس تمامًا، مزيد من الخوف، مزيد من العصاب، مزيد من الاكتئاب، مزيد من العنف الداخلي والخارجي مزيد من التعارض بين طرفي الجنس البشري الرجل والمرأة رغم تلقائية انسجامهما.

بعد توضيحه للظروف الاضطرارية الثلاث التي يوجد فيها الإنسان، يوضح آدلر أن تشكل معنى الحياة بالنسبة للإنسان من طفولته

وعلى مدى عمره، يتشكل وفقًا للأسلوب التربوي الذي خضع له عبر الأسرة وبقية المؤسسات الاجتماعية. وفي الغالب يعتبر الأسلوب التملكي، الاستحواذي القامع لشخصية الطفل وميله هو السائد، لذلك تتعمق لدى الإنسان عقد النقص والشعور بالذنب والعدوانية المتراكمة. والأخطر من ذلك عدم استعداده للتعاون مع المجتمع لشعوره العميق أن المجتمع أساسًا غير جدير بالتعاون لما ألفه منه سابقًا من قمع واحتقار.

(إن أسلوب الحياة هو المنتج والمخرج لأحلامنا وهو سيقوم دائمًا بإثارة المشاعر التي يحتاجها الفرد).

الفرد يحدد أسلوبه في الحياة وفقًا لما ترسب داخله من خوف أو أمن على مدى حياته عبر مؤسسات التربية.

لذلك لم يتوقف آدلر عند حتميات فرويد النفسية عندما جعل من الإنسان أسيرًا للأوعية الذي تشكل عبر طفولته تحت تأثير عقد الخصاء والخوف. اعتبر آدلر أن كل هذه العقد نتاج مجتمع تملكي وبإمكان علم النفس الفردي اكتشاف هذه المشكلات الوظيفية والاجتماعية والجنسية ومحاولة تغيير أسلوب الإنسان الغير تعاوني ولكن بالطبع بإعطائه الثقة في ذاته ومجتمعه مرة أخرى وبإستراتيجيات تربوية صحية وسوية، أي بعيدة عن القمع والتملك ومحاولات الهيمنة النفسية والعقلية عليه. وعلم النفس الفردي يجعل من الفرد شخصية مستقلة تحتاج إلى التفرغ

والدراسة والتعمق، وليس مجرد عضو في مؤسسة أو هيئة وسوف يتضح ذلك جليًّا في أسلوب معالجة آدلر للطالب الانطوائي أو المحبط أو المتأخر دراسيًّا بالتعامل مع حالته فرديًّا وإعطائه الوقت والاهتمام الكافي ودراسة ظروفه في المنزل وأسلوب تربيته. وبإمكان الإخصائي النفسي في المدرسة متابعته بعناية وتوجيه الآباء والمعلمين بأسلوب التعامل معه بالطريقة التي تعيد إليه الثقة في ذاته وفي مجتمعه. وقد أسس آدلر في بعض المدارس النمساوية آن ذاك قسم نفسي من اختصاصه التعامل مع الطلاب فرديًّا. وهذا من شأنه أن يبرز أهمية التعامل مع الإنسان كفرد له عالم نفسي خاص به بعيدًا عن النظر إليه كوسيلة أو كجزء من قطيع اجتماعي كما هو الغالب في تعامل الكثير من الأسر والهيئات التعليمية مع أعضائها.

(الأخطاء التي نرتكبها في فهمنا لمعنى الحياة، لا يمكن إصلاحها إلا من خلال إعادة النظر في الموقف الذي أدى بنا إلى هذا الفهم الخاطئ؛ لأنه من خلال التعرف على الخطأ الذي ارتكبناه واستبدال نظام الماضي بنظام مخالف له فإنه يمكننا عكس طريقة هذا النظام الإدراك الترابطي)

يتداخل آدلر مع أسلوبين من أساليب التربية التملكية التي لا تبغي هدفًا سوى السيطرة على الطفل بكل طاقاته النفسية والعقلية تمهيدًا لاستغلاله مستقبلًا.

أسلوب التدليل الزائد وأسلوب الإهمال. وكلا الأسلوبين من شأنهما تعميق عقد النقص والخوف ومشاعر عدم التعاون لدى الطفل.

أولًا: التدليل الزائد

الطفل الذي يتعرض لتدليل زائد (يتوقع أن تكون كل رغباته مجابة وكل أمانيه واجبة التحقيق.

تم منحه وضعًا اجتماعيًّا وأهمية لا يستحقها ولم يبذل أي جهد للحصول عليه، وهو عمومًا يطالب بمميزات هذا الوضع الاجتماعي كما لو كان أحد حقوقه الموروث ونتيجة ذلك هي ظهور تصرفات غريبة، عندما يفقد وضعه كمركز لاهتمام المجتمع أو عندما لا يعتبر الآخرون وجوده ومشاعره أهم ما في الوجود)

هؤلاء المدللون يعتبرون أن العالم قد فشل في إعطائهم ما يستحقون من جدارة، فقد تم تدريبهم منذ نعومة أظافرهم على الأخذ دون العطاء، فقد كان جميع من حولهم يقومون بدور الخدم لهم. حتى أنهم فقدوا القدرة على الاستقلال بأنفسهم، وتلك هي غاية أسلوب التدليل، خلق التبعية لدى الآخر وإفقاده قدرة الاستقلال والاعتماد على الذات وبذلك يمكن استغلاله كابن أو زوجة أو بنت.

شخصية الشخص المدلل تؤمن بأنه (إذا ما تمكنت من استعادة مركزي ووضعي السابق فإنني سأتمكن من إجبار الآخرين على الاعتراف بأهميتي)

(البعض يثور ثورة عارمة عندما يفشلون في الحصول على ما يعتقدون أنه حق من حقوقهم الموروثة، وأنه ليس أمامهم إلا أن ينتقموا)

العقاب لا يفلح مع هؤلاء؛ لأنه يثبت لهم صحة وجهة نظرهم، ويبرر لهم وجهة نظرهم العدائية تجاه المجتمع، وهذا ما يقصده آدلر بتغيير أسلوب ومعنى الحياة بالنسبة للفرد بخلق ظروف مختلفة له والسير بعكس الاتجاه التربوي التملكي. إلا أن الأمر بحاجة لرفق وهدوء وصبر وثقافة نفسية. وذلك من شأنه أن يغير الكثير لدى الإنسان.

ثانيًا: الإهمال

ربما يبدو الإهمال نقيضًا للتدليل بالمعنى الحرفي، إلا أنه كأسلوب تربية يعد الوجه الآخر للتدليل فيما يخص عملة التملك. من يريد على وجه الإصرار والترصد استغلال شخص واستتباعه وإخضاعه من الضروري أن يزرع بداخله الخوف. وصولًا لهذا الهدف فإنه يقصقص له ريش حياته وإرادته واستقلاله إما بتدليله أو بإهماله ومعاملته بعدوانية. وفي الغالب يلجأ المتملك الخبير لكلا الأسلوبين. التدليل والاستبداد الناعم يخلق لدى الطفل حالة من التبعية والخوف من العالم الخارجي. المعاملة القاسية والإهمال أيضًا من شأنهم تعزيز خوف الإنسان وخلق تبعية بداخله؛ لأنه يفقد الثقة في ذاته ويشعر بدونية عميقة.

يحلل آدلر الإهمال (أما الموقف الثاني الذي يؤدي إلى خطأ في فهم معنى الحياة، هو موقف الأطفال الذين يتعرضون للإهمال، إن المجتمع في نظر مثل هؤلاء الأطفال مجتمع بارد، بلا مشاعر وعدواني إلى درجة كبيرة، وإن المجتمع سيحتفظ بمثل تلك الصفات ولن يتغير أبدًا، يؤمنون بعجزهم عن اكتساب صداقة وتعاطف هذا المجتمع مهما فعلوا، وأن القيام بأفعال مفيدة تساهم في رفعة المجتمع لن يعود إليهم بأي منفعة في هذا المجتمع البارد العديم المشاعر)

أسلوب الحياة الذي يشكله هؤلاء الأطفال بالطبع سيكون عكس أي تعاون مفيد لصالح المجتمع، بل العكس هو الصحيح، مزيد من العنف الظاهر والمكتوم المجسد في الحقد والحسد والغيبة وصولًا إلى العنف الصريح والقتل والتدمير. يجسد زيطة صانع العاهات، أحد شخصيات رواية زفاق المدق لنجيب محفوظ هذا النموذج. تربى على الأرصفة لشحاذين، استقبل إهمال الأب والأم وإهمال المجتمع حتى تراكمت لديه عدوانية مهولة على مدى سنين طفولته وشبابه، انتهى الأمر به كصانع عاهات مستديمة لمن أراد اختيار الشحاذة كمهنة، مارس هذه المهنة بدقة تتناسب مع ما يحمل من عدوانية. فضلًا عن تخيلاته العدوانية لأهل الزقاق وشماتته فيمن يعاني.

(لا توجد خبرة أخرى تستطيع أن تعوض ما افتقده مثل هؤلاء الأطفال من اختبار رقة وحنان ومحبة أبوين)

(أهم وأول مهام الأب والأم الحب والحنان)

ويرى آدلر أنه من الممكن تغيير رؤية هؤلاء الضحايا وتغيير أسلوبهم الغير تعاوني، بالعلاج النفسي المتوازن والتعامل معهم كضحايا لا كمجرمين.

(إن كل فرد يملك القدرة على أن يصبح مهتمًا اهتمامًا حقيقيًّا بالآخرين، ولكن هذه القدرة يجب رعايتها منذ الصغر بالتدريب والتمرين).

يتداخل آدلر مع المؤسسات الاجتماعية التي أخذت على عاتقها مسؤولية رعاية الطفل وتربيته لا سيما الأسرة والمدرسة. ربما لم يأتِ آدلر على تفصيل مسؤوليات الدولة ونظامها السياسي سوى فيما يخص تحسين المستوى الاقتصادي للفرد وتهيئة المدارس لتربية صحية تعتمد على تعزيز ميل وإرادة وثقة الإنسان والاهتمام بتحسين صحته النفسية وإصلاح ما أفسده البيت بأسلوب علمي وفردي.

أولًا: تأثير العائلة

يبرز آدلر أهمية دور الأم فيما يخص تشكيل رؤية وأسلوب الطفل لحياته وماهية المعنى الذي سيعطيه للوجود والعلاقات سلبيًّا وإيجابيًّا.

(الأم تعطي الطفل أول علاقة له بفرد آخر من الجنس البشري، وبالتالي الأم تمثل الجسر الأول الذي يربط بينه وبين الحياة الاجتماعية)

ينتقد آدلر المجتمعات التملكية لا سيما الأبوية، عندما اختزلت المرأة في أدوارها الخدمية كأم وخادمة منزلية، في الوقت الذي يحتقر فيه الرجال الوظائف المرتبطة بالمنزل والأسرة اعتقادًا منهم أنهم خلقوا لما هو أسمى.

(من سوء الحظ أن الحضارة الغربية أنها لا تنظر لوظيفة الأم بالاحترام الكافي، ولهذا من الطبيعي أن تكره الفتيات مهامهن المستقبلية، ودورهن في الحياة. في كل مكان تقريبًا هناك عدم تقدير لدور المرأة في حياتنا، حتى في مرحلة الطفولة، نجد أن الفتى ينظر إلى العمل المنزلي على أنه وظيفة الخدم والنساء، كما لو كان القيام بالمساعدة في المنزل هو أمر ضد كرامة الرجل وعزة نفسه)

ويدعو آدلر المرأة أن تتخلى عن تبني وجهة النظر الذكورية، وأن تتعامل مع هبة الأمومة بفخر ومنهجية واعتزاز، دون أن تقع في فخ الأمومة التملكية التي تنتج عن تحويل عدوانيتها إلى الأطفال في صورة إهمال أو تملك ناعم في صورة تدليل.

(عندما لا نعطي دور المرأة حق قدره فإننا نفقد التناغم الذي يجب أن يسود الحياة الزوجية. وكل امرأة تنظر باحتقار لوظائف

الأمومة، ستجد من الصعب تعلم المهارات اللازمة للقيام بمهامها. ستجد أنه من الصعب عليها الارتباط بأطفالها، وستنظر إلى الأطفال على أنهم عبء ومضيعة للوقت)

وحتى تؤدى المرأة هذا الدور بسلاسة يجب أن يكون هناك اعتراف من الدولة ونظامها أن المرأة عندما تؤدي دورها الأمومي بإنسانية وكفاءة، فإنها تؤسس لمجتمع سوي صحيًّا ونفسيًّا وعلائقيًّا وإنتاجيًّا. لذلك من الضروري أن يحمي الدستور والقانون والمؤسسات كيان المرأة صحيًّا ونفسيًّا واقتصاديًّا بتوفير مؤسسات تربية داعمة وحث أصحاب الأعمال على مراعاة دور المرأة الاجتماعي الخطير في حال أمومتها.

(إن الهدف الذي بنيت عليه غريزة الامومة غير جنسي، ولكنه ينبع من هدف التعاون ونستطيع أن نجد في كل أم الشعور بأنها من خلال أطفالها قد استطاعت أن تخلق شيئًا)

(على الأم بعد أن تنجح في توثيق صلاتها بأطفالها، أن تعمل على توسيع اهتماماتهم، حتى تشمل الأب أيضًا. كما أن عليها أن تجعلهم مستعدين؛ لأن يعملوا بهذه الثقة باقي أفراد المجتمع)

دور الأب.

في حال صارت الأسرة النووية واقعًا مؤسسيًّا لتنشئة الطفل، من الضروري نزع الرداء الأبوي الذي علق بها وتغلغل بداخلها عبر

تاريخ الإنسان التملكي الطويل. وإذا كان الرجل قد امتلك زمام المبادرة في تأسيس مجتمع تملكي يسوده الخوف والعصاب والعلاقات البائسة المشوهة، هو أيضًا من بيده بعد الإدراك العميق لما سببه من جروح غائرة، نزع هذا الرداء الأبوي القاتم عن مؤسسة الأسرة. وذلك عبر محاولة تأسيس شراكة من نوع مختلف مع المرأة، قوامها التعاون والرفقة المشتركة بعيدًا عن التمحور حول مشروع الرجل ومصلحته التي يخضع لها كل أفراد الأسرة بعد قمع ميولهم وحقهم في حياة حرة مستقلة.

(الأب يجب عليه إثبات صلاحيته كرفيق جيد لشريكة حياته ولأطفاله وللجميع من حوله، يتعاون على قدم المساواة، يجب ألا يتظاهر بأن كل العطاء مركزه وأن كل الأخذ من الآخرين)

تستمد هذه الأسرة الجديدة المعنى والماهية من كونها تعاونية، أي أن ما نقوم به من أعمال لصالح أطفالنا، إنما هو في الواقع لصالح المجتمع بأكمله، فإنه لا يمكننا الهرب من الرابطة التي تربطنا بباقي أفراد الجنس البشري.

يحلل آدلر أيضًا سمات الأسرة التملكية المؤسسة على السلطة ومحاولة الاستحواذ والهيمنة على الآخرين.هذه التملكية منبعها الرجل بالطبع في المجتمعات الأبوية إلا أنها تتسع لتشمل الجميع المرأة والأبناء كوسيلة لتحويل العدوانية المتراكمة والشعور بالذات عندما يتم الهيمنة على الأضعف.

(الأم تملؤها الرغبة في الاستحواذ على الأطفال وإبعادهم عن أبيهم، وأحيانًا فإن كلا من الأب والأم يستخدم الأطفال كأحد الأسلحة المشروعة في الحرب بينهما)

(إذا كان الأب سلطويًّا، فإن الأبناء الذكور، يحتفظون بوجهة نظر خاطئة عن واجبات وحقوق الرجل، كما أن بناته سيعانون الأمرين. وفي بعض الأحيان فإنها قد تحاول أن تحمي نفسها من الرجال عن طريق خلق علاقات جنسية بغيرها من النساء)

(أما إذا كانت الأم متسلطة، البنات يقلدن الأم، وتصبح الواحدة منهن حادة ولاذعة اللسان، أما الصبيان يصبحون سلبيين، وستخذ الواحد منهم موقف الدفاع الدائم، ويصبح خائفًا من النقد ومن محاولات الجنس الآخر للتحكم فيه، وأحيانًا تكون الأخوات والعمات من النوع المتسلط، يصبح متحفظًا، وغير مستعد للتعاون والاشتراك في الحياة الاجتماعية، يصيبه الخوف من جميع النساء، وهكذا النساء)

(وفي ظل هذا التفكير، فإنه سيصبح من المستحيل على الأفراد الذين ينظرون إلى جميع العلاقات مع الآخرين على أنها مواقف هزيمة أو نصر، أن يدخلوا في علاقة زمالة مع الآخرين)

ثانيًا: المدرسة.

إذا كانت المدرسة في المجتمعات التملكية الشمولية قد انحصر دورها في الإعداد المهني للطالب فضلًا عن تشكيل وعيه، بما يلائم

مصالح النظام السياسي، وتعويده على قيم الخضوع والطاعة والولاء والخوف من المجهول. ففي مجتمع تعاوني جديد من الضروري أن يختلف دور المدرسة كمؤسسة هدفها الرئيس الحفاظ على عنصر النمو للإنسان، بما يناسب ميوله واستقلاله وحرية اختياره، لا ما يناسب السلطة ومصلحتها.

(هدف التعليم هو تخريج أطفال يستطيعون التفكير باستقلالية)

(لم تعد راغبين في تعليم وتدريب الأطفال لكي يكسبوا معيشتهم فقط، ولكن في حاجة إلى تخريج جيل جديد يستطيع العمل مع بعضه البعض من أجل تحقيق الصالح العام)

بالتأكيد يقصد آدلر بتعبير الصالح العام، ما يتعلق بالمجتمع وسعادة أفراده لا ما يتعلق بالسلطة وأقطابها.

يتعامل آدلر مع فكرة المؤسسة التعليمية من منطلق التعاون المثمر الذي سبق أن أكده بكون الإنسان جزء من الجنس البشري وعدم استطاعته التفكير بعيدًا عن ذلك، وأيضًا من حيث خصوصية كل طفل وطالب في المدرسة والحاجة إلى التعامل معه كفرد مستقل له كيانه، بعيدًا عن كونه عضو في مجموعة تلك أحد خصائص علم النفس الفردي.

والشخص الذي يقع على عاتقه تحقيق هذا الهدف هو المعلم، والذي يلزمه ثقافة نفسية واسعة فضلًا عن إمكانياته العلمية.

(إن المدرس لا يستطيع إنجاز أي شيء، إلا إذا تعرف على شخصية الطفل وفهمها حق الفهم، فنحن في حاجة إلى التعاون الوثيق بين الطبيب النفسي والمدرس، كما أن المدرس يجب أن يعرف كل ما يعرفه الطبيب النفسي)

(إن مهمة المدرس، التعرف على المشكلات التي تواجه الطفل وتصحيح أخطاء الوالدين، عليه أن يخلق رابطة مع هؤلاء الأطفال)

(إن المدرس يجب أن يعرف كل تلاميذه معرفة دقيقة وشخصية وإلا فإنه سيصبح غير قادر على الحصول على اهتمامهم وتعاونهم)

(لا يستطيع فهم عقول الأطفال، مثل المدرس الذي يعلمهم ويعمل ويلعب معهم)

كان من الضروري تفصيل رؤية آدلر، لما تحمله من مضامين واقعية وإجراءات عملية في محاولة الانتقال بالمجتمع لصيغة أكثر تعاونية وأيضًا لما تحمله من بعد نفسي عميق كونه أحد رواد علم التحليل النفسي.

عرض د. طه حسين رؤيته فيما يخص النهوض بالتعليم ولكن من زوايا مختلفة تتعلق بأهداف الدولة والنظام السياسي عمومًا. ليعود إلى النقطة الأساسية المتعلقة بوجود نظام سياسي إنساني

ومثقف يضع الإنسان المواطن محور اهتمامه وإلا لمن يتوجه حديث الإصلاح؟

 # الاقتباسات ما بين الاقواس من كتاب آدلر (معنى الحياة)

***

٣- التعليم ومستقبل الثقافة في مصر ، د. طه حسين.

لا يمكن لأي باحث أو سياسي أو معلم أو مهتم بإصلاح التعليم تجاوز كتاب "مستقبل الثقافة في مصر" لعميد الأدب العربي طه حسين. أولًا لأن المؤلف مفكر وأكاديمي وفيلسوف وفوق ذلك شغل منصب وزارة المعارف. السبب الثاني أن الكتاب ثوري بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ولا نريد بكلمة ثوري صبغ الحديث بشحنة وجدانية، ولكن لأن د. طه حسين يربط التعليم بالدولة الديمقراطية التي تستمد سلطتها من الشعب وتعمل للشعب وليس لطبقة معينة، لذا فالتعليم حق وليس إحسان من الدولة للشعب. لأن الديمقراطية تضع الدولة والنظام السياسي في خدمة الشعب.

التعليم والدولة الديمقراطية...

"الدولة هي المسؤول الأول، والمسؤول الأخير والمسؤول قبل الأفراد والجماعات عن تكوين العقلية المصرية تكوين يلائم الحاجة الوطنية الجديدة، تثبيت الديمقراطية والاستقلال"

هكذا كتب د. طه حسين في ربطه بين أهداف الدولة التي تعمل لمصلحة الشعب وتستمد سلطاتها منه وأهداف التعليم. وأهداف الدولة الديمقراطية تحقيق السلم والأمن والحرية لشعبها، وتحقيق العدل والمساواة بين أفراد الشعب، وتثبيت الاستقلال، وتنمية قدرات الشعب للعمل والبناء في كل المجالات، فضلًا عن صيانة العقول والرقي بها وتثقيفها ليس للعمل فحسب ولكن لإمكانية التعايش السلمي التكافلي.

"لأجل أن تكفل الديمقراطية الحياة للناس يجب أن تكفل لهم القدرة على الحياة.. الحياة القابلة للتطور.. تأمين وسائل العيش... وتمكين الفرد أن يعرف نفسه وبيئته الطبيعية والوطنية والإنسانية.."

ووسيلة الدولة الأولى لتحقيق تلك الغايات النبيلة هي التعليم الذي يتم في مؤسسات الدولة التي هي المسؤول الأول عن تنمية عقول وقدرات ومدارك أفراد شعبها لتحقيق غاياتها في المواطنة والرقي وإدراك الحقوق والواجبات.

"لا تستطيع الديمقراطية أن تكفل للناس حياة ولا حرية ولا سلمًا إلا إذا كفلت لهم تعليم يتيح لهم الحياة والحرية ويمكنهم من السلم"

"إذا تعلم أبناء الشعب عرفوا ما لهم من حق في حياتهم الداخلية، فلم يسمحوا لقلة مهما تكن أن تظلم الكثرة. التعليم وحده إذا كان صحيحًا هو الذي يضمن للمصريين العدل والمساواة فيما بينهم وبين أنفسهم، والعزة والكرامة فيما بينهم وبين الآخرين"

"ليست حاجة الشعب إلى التعليم الصالح بأقل من حاجته إلى الدفاع الوطني.. الشعب معرض للخطر الذي يأتيه من داخل حين يفتك الجهل بأخلاقه ويرافقه"

المعلم..

إذا كان التعليم هو وسيلة الدولة الأولى للنهوض بالوطن والمواطن، فالمعلم هو الركن الرئيس والوسيط الأول لتنمية عقل المواطن، بما يتناسب مع أهداف الدولة التقدمية، لذا فتحميله هذه الأمانة كفيل بتأهيله والاهتمام به وإشعاره بالأمن الوظيفي والمعيشي، وإشعاره بالكرامة، ومراعاة قدسية وأهمية مهنته.

"إنك تطلب إلى المعلم الأولي أن يبث في نفس الطالب العزة والكرامة وحب الحرية والاستقلال فيحب أن تشعره العزة والكرامة وحب الحرية.. لأن الرجل الذليل لا يستطيع أن ينتج إلا ذلًا وهونًا.. إن الشعب الذي يريد أن ينشئ جيلًا صالحًا خليق قبل كل شيء أن يفكر في المعلمين".

"المعلم إنسان كغيره من الناس له حقة في أن يعيش عيشة راضية إلى حد ما وأن يبسم للأمل وفي أن يربي أبناءه ويعلمهم كما ربى هو

وكما علم ولا بُد من أن تمكنه الدولة من ذلك ومن أن تأجره الدولة أجرًا يلائم عمله الخطير وحقه الطبيعي وأمله المعقول".

كما أراد طه حسين من المعلم الإيمان برسالته النبيلة والأساسية في تنمية وصيانة عقول رفاق شعبه وأبنائه حتى يستطيع أن يتحمل العبء الملقى عليه. وعلى الدولة الاهتمام وتجهيز معاهد التربية والاعتداد بها وعدم التعامل مع المعلم أنه عالة. ومن الضروري إعطاء الثقة للمعلم وعدم الإفراط في مراقبته.

وعلى المعلم تنمية قدراته وقراءاته الحرة والإلمام العميق بأهداف رسالته فهو لا يعد فقط المهني ولكنه يشكل عقول وشخصيات ومدارك وهو وسيط الطالب لمعرفة وطنه ولغته وبيئته وحقوقه وواجباته.

"التعليم ليس بالشيء اليسير الذي يستطيع أن ينهض به أنصاف المتعلمين إنما أمر التعليم الأولي خليق أن يكون إلى صفوة الأمة وخلاصة النابهين من علمائها وقادة الرأي فيها".

حول المجانية والتعليم للجميع:

إذا كان هدف الدولة الرئيس تثبيت العدل والمساواة فكيف يمكن لهذه الدولة حرمان أفراد الشعب من التعليم العام والعالي بحجة الفقر؟ يري طه حسين أن الفقر والغنى عوارض دنيوية لا دخل فيها للمواطن.

"لا ينبغي أن نفرق بين أبناء الشعب وأن نبيح لبعضهم من أسباب الرقي ووسائل الامتياز والطموح إلى الكمال ما نحظره على بعضهم الآخر وإما أن نتصور الشعب على أنه كثرة ضخمة هائلة جاهلة غافلة وخاضعة تسودها طبقة ضئيلة من هؤلاء الممتازين بالدم والنسب والثروة"

وإذا كانت الحجة الجاهزة دائمًا تكمن في التمويل يرى د. طه حسين أن الدولة يجب أن تأخذ من الغني لتعطي الفقير وعلى دافع الضرائب أن يؤمن أن تنمية عقول رفاقه في الوطن تساعده على الحياة بأمن وسلام مع عقول منفتحة ومثقفة.

وإذا كانت الحجة الأخرى في شيوع البطالة، فتعميم التعليم لا دخل له بالبطالة بل جذور أزمة البطالة تعود للنظام الاجتماعي ذاته ونظام التوظيف المؤسس على المحسوبية وأهل الثقة.

"لم تعالج أزمة البطالة بإكراه الشعب على الجهل ولكن بإصلاح النظام الاجتماعي وإنما تعالج بفتح أبواب التعليم حتى يرشد الشعب".

"ليس الأفراد في حاجة إلى دفع الضرائب للدولة أكل لم تضمن لهم الدولة أيسر ما يحتاجون إليه ليعيشوا ويكونوا أمة واحدة قادرة على الوجود"

وزارة التعليم "مرآة كدرة للحياة السياسية"

"لا نعرف وزارة من وزارات الدولة المصرية يشتد فيها التنافس البغيض بين الموظفين وما يتبع هذا التنافس من التباغض والتحاسد ومن الكيد والمكر والارتياب بكل شيء وبكل إنسان وسوء الظن بكل إنسان كوزارة المعارف وفيها تجد التنافس بين الأفراد والتنافس بين الطوائف، المعلمون يكرهون المفتشين وكل طبقة من هذه الطبقات ينكر بعضها بعضًا"

"لا تكاد تعرف لوزارة المعارف رايًا مستقرًا في مسألة من المسائل الفنية الخطيرة أو الهينة وإنما هي تعرف ما يعرف الوزير وتنكر ما ينكر الوزير"

ويرى طه حسين أن أزمة وزارة التعليم هي أزمة الفنيين الذين لا يملكون لجانًا ثابتة وسياسة تعليمية عامة تقدمية تستطيع مواجهة أخطاء الوزراء. لذا يجب أن تكون اللجان الفنية بالوزارة على مستوى عالي من العلم والخبرة والثقافة..

المدرسة والمعلم...

المدرسة ليست مجرد مصنع لإنتاج موظفين وإن كانت تلك غاية إنشائها في عهد الاحتلال. ولكن في عهد الدولة المستقلة تختلف وظيفتها في تشكيل شخصيات الطلاب وتنمية عقولهم وتعريفهم بوطنهم ولغتهم وبيئتهم وحقوقهم وواجباتهم وتلك أهداف رئيسية يحب أن يعيها المعلم. لذا لا يمكن لأي مؤسسة خارجية "المراكز

التعليمية" القيام بتلك المهمة. فالمدرسة ليست مصنع ولكنها مؤسسة تربوية متكاملة. علاقة الطالب بالمعلم مهما كان تخصصه هي علاقة بأخ كبير وأخصائي نفسي فهو الذي يكتشف ميوله ويحترم قدراته وينصحه ويراقبه تحت إشراف الدولة. لذا يحب مراعاة عدد الطلاب في الفصول ليستطيع المعلم الاقتراب منهم وفهمهم وتوجيههم.

الامتحانات العامة..

مع دخول الطالب للمدرسة ينسى مهمته الأساسية وهي التعلم والاستكشاف والبحث والقراءة الحرة لينشغل بدرجة الامتحان التي تعطيها الأسرة وهيئة التدريس الأولوية في صعود الطالب رغم أنها ليست مقياس للقدرات الكاملة للطالب. لذلك يري د. حسين أن تسهل الوزارة الامتحانات العامة وتلغي امتحانات سنوات النقل على أن يتولى المعلم مهمة تقييم الطلاب عمومًا ويقصد بذلك المعلم العزيز الذي توليه الدولة الاهتمام والأجر المناسب الذي لا يجعله فريسة الواسطة والمحسوبيات. وبذلك سينشغل الطالب بتكوين نفسه معرفيًّا وعلميًّا بدلًا من الانشغال بدرجة الامتحان.

تناول الكتاب نقاط أخرى متعلقة بتيسير تعليم اللغة العربية وتسهيلها والاهتمام بها فقط على الأقل طوال سنوات التعليم الأولي؛ لأنها اللغة الوطنية..

وشدد د. طه حسين على ضرورة فرض معايير على المعاهد الأزهرية والمدارس الدولية وذلك بتدريس التاريخ الوطني للدولة وتنمية ارتباط الطلاب بوطنهم وبيئتهم المعاصرة وفهم حقوقهم وواجباتهم تجاه أرضهم ووطنهم ولغتهم القومية....

صدر كتاب "مستقبل الثقافة في مصر" عام ١٩٣٨ وكان التعليم رغم ضيق رقعته على درجة أعلى من الجودة وكانت أحوال المعلم على درجة معقولة معنويًّا وماديًّا. والسؤال الذي راودني بعد انتهاء قراءتي للكتاب ماذا لو اطلع عميد الأدب العربي على أحوال التعليم الان؟ ماذا لو شاهد حواء وتواضع مدارس الدولة المهملة؟ ماذا لو شاهد أفواج الطلاب بعد انتهاء، اليوم المدرسي وإثنائه في طريقهم للمراكز التعليمية التي تعمل لإنتاج آلات بشرية تحفظ ولا تملك أي ثقافة تربوية أو وطنية لأهداف التعليم عمومًا؟ وماذا لو اطلع على أحوال المعلم البائس الذي يكمل أجره الزهيد بالعمل في مهن أخرى "سائق، مندوب مبيعات، وغيرها" او اضطراره لترك بيته وأسرته من أجل دروس خصوصية تستهلك ما بقى لديه من طاقة وفوق ذلك تطارده الدولة وتهدده بعد أن أذلته وامتصت طاقته ورحيقه؟

 # الاقتباسات ما بين الأقواس من كتاب (مستقبل الثقافة في مصر، من تأليف د. طه حسين)

***

٤- رؤية إريك فروم الإصلاحية..

تعتمد رؤى إريك فروم الإصلاحية على رؤيته الأصلية للإنسان والمعنى الحقيقي لإنسانيته. هذا المعنى يتمثل في تحقيق الإنسان لذاته بكل إرادة وحرية واستقلال. يعد إريك فروم من رواد المدرسة الإنسانية في علم النفس رغم أنه في الأساس محلل نفسي يعتمد على منهج فرويد التحليلي. إلا أنه لم يستطع أن يتوقف عند حتميات فرويد المتعلقة باللا شعور وتحكمه في مصير الفرد. ربما دراسة فروم لماركس رسخت بداخله إمكانية تغيير مسار هذه الحتميات وأيضًا تجنبها في حال تغيير شروط السياق. إشكالية فرويد أنه حلل الذات الإنسانية المشوهة بواسطة تاريخ طويل من التملك والأبوية لذلك جاء تحليله واقعيًّا فيما يخص هذه الذات بما تحمله من عصاب وانشطار وشعور بالذنب وعقد متعلقة بالتعارض الكبير بين تعاليم السلطة الممثلة في الأنا الأعلى ونداءات الهو الممثل لميول الإنسان الأصيلة وحيرة الأنا الواقعية وتشظيها بين تعاليم السلطة ونداءات الأنا. كذلك حلل فرويد نفسية المرأة في سياق أبوي شوه ذاتها الأصيلة، الحرة، ولم يترك لها سوى الخضوع والألم، وقد تماهى فرويد مع هذا التفسير لذات المرأة لسبب بسيط وواضح، أنه لم يبالِ كثيرًا بالسياق بقدر اهتمامه بما أنتجه السياق.

عبر دراسته لفرويد وماركس، خرج فروم برؤية متوازنة حاول خلالها التوفيق بينهما فيما يخص اختصاص كليهما.

إذا كان الإنسان في المجتمع الأبوي قد انشطر إلى أكثر من ذات بفعل التملك السلطوي، فالأمر ذاته على المستوى الاجتماعي، في كتابه ما وراء الأوهام كشف فروم عن المصافي التي يتعرض لها وعي الإنسان منذ ولادته سواء تعلقت هذه المصافي بالسلطة الأبوية، الدينية، الاجتماعية، التقاليد، الأعراف، اللغة، التابوهات، هذه المصافي تشكل وعي الإنسان وتحدد له حدود وعيه وتفكيره وفي الغالب تزيف هذا الوعي. أطلق فروم على هذه المصافي مصطلح اللا شعور الجمعي وهو تعبير يترادف مع اللا شعور الفرويدي.

هذا اللا شعور السلطوي الاجتماعي هو جوهر ما قصد ماركس كشفه، عبر كشفه للنظام الطبقي الأبوي الذي يشكله بما يتناسب مع مصالح الأقوى طبقيًّا وجنسيًّا وطائفيًّا في حلبة تملكية محركها الخوف والجشع والصراع على الملكية. (يعتقد الإنسان أن أفكاره صحيحة ونتيجة لنشاطه الفكري أو فعاليته الفكرية، على حين يتأثر هذا النشاط في الحقيقة بقوى موضوعية في الأساس وتمثل في نظرية ماركس القوى الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية التي تؤثر في الوجود وتؤثر بالتالي في وعي الفرد)

رؤية فروم لماركس رؤية نفسية وفلسفية عميقة، وفي ذات الوقت بعيدة عن ترجمة الأنظمة للماركسية على الأرض بصورة مشوهة عبر منظومات اجتماعية حولت الإنسان إلى رقم وترس في ماكينة اشتراكية لا تبالي بذاتية الإنسان وميوله وأصالته.

ولذلك جاء نقد فروم لبيروقراطية الاشتراكية موازيًا لنقده للرأسمالية ومنظومتها التي حولت الإنسان إلى رقم، مستهلك.

وقبل الولوج لرؤى فروم الإصلاحية والتي جاءت جذرية وشاملة فيما يخص البنى التحتية والفوقية للبناء الاجتماعي، قبل الولوج لذلك ولأجل فهم أعمق لهذه الرؤى من الضروري توضيح رؤية فروم للإنسان ذاته وجوهر كينونته.

(الإنسان يتمتع بكونه مخلوقًا نشيطًا، ليس لأنه بحاجة إلى هذا الشيء أو ذاك، بل لأن فعل الخلق والتعبير عن كفاءته الخاصة تخلق في حد ذاتها الفرحة)

(الإنسان في الواقع يتعلم عندما يعبر عن نفسه وعن القوة الرابضة بداخله. إن الفرحة الصحيحة تكمن في النشاط، والنشاط الصحيح هو تعبير وتطور نمو لقوة الإنسان)

يؤكد فروم على نقطة محورية النمو الإنساني الحر، ذات المحور الذي أكده راسل في كتابه إعادة تشكيل البناء الاجتماعي. لذلك يبرز فروم الآثار المشوهة للذات والمجتمع والناتجة عن تملكية

الفرد والسياق حتى على المستوى الحيواني كما لاحظ الباحث زولي زوكرمان آثار كبت حرية النمو على حيوانات حديقة حيوان لندن (وضعية السجن والملل وتقليص الحرية تقود إلى عدوانية أكثر لا نلاحظها في الظروف الطبيعية المعتادة)

انتقد فروم البناء الاجتماعي الخاص بالنظام الصناعي الحديث، إلا أن نقده ليس بعيدًا عن مجتمعات العالم الثالث بحكم تبعيتها الاقتصادية للأقطاب الرأسمالية الكبرى، وأيضًا رسوخها لأنظمة شمولية تملكية،

(في النظام الصناعي الحديث يتأسس الاقتصاد الحالي على الإنتاج الأقصى والاستهلاك الأقصى. إن أغلبية الناس في هذا النظام الاقتصادي يشعرون بأنهم فقراء؛ لأنهم لا يسايرون سرعة وكثافة البضائع المعروضة، وهكذا يقوى الملل والغيرة والحقد وأخيرًا الشعور بالضعف الداخلي وعدم القدرة والدونية) (أريك فروم، جوهر الإنسان)

(تحول الإنسان إلى بضاعة، يعيش حياته كرأس مال يجب استثماره من أجل الربح، تتأسس قيمته على إمكانية بيعه وليس على قيمته الإنسانية)

(أغلبية الناس موظفين، لم يبيعوا قوة عملهم فقط، بل يبيعون في المزاد العلني، ابتساماتهم وصداقاتهم. يخونون أصالتهم دون أن

يكونوا على يقين ما إذا كان بإمكانهم الصعود في السلم الاجتماعي أم سيتعرضون للفقر)

(إن الانتحار كظاهرة جماعية، له علاقة مع اعتبار الإنسان آلة وغياب أي هدف في الحياة) (أريك فروم، جوهر الإنسان)

في كتابه ما وراء الأوهام يؤكد فروم على أهمية التخلص من هذه الأوهام المرتبطة بما رسخته السلطة الأبوية ومؤسساتها في الإنسان من رؤية وعقيدة وتابوهات. هذه الرؤية لا تنسجم مع نمو الذات الإنسانية بحرية، بل العكس هو الصحيح؛ لأن النمو الفردي المستقل والحر يعيق مصالح السلطة وتملكيتها وحرصها على خنق النمو الحر عن طريق تزييف الوعي بالأوهام التي يعتقد الإنسان أنها نتاج فكرة الحر. والتخلص من هذه الأوهام بحاجة لثقافة نفسية واسعة ورحلة تأمل عقلانية كما سبق وتم تفصيل ذلك في فصل نحو التحرر الفردي الداخلي. لا أنه في ذات الوقت يحتاج لسياق عقلاني، مؤسس على التعاون والإيمان بالنمو الحر للإنسان وهذا ما سيحاول فروم توضيح السبل التي تمهد الطريق لهذا السياق.

(إن البحث عن الواقع أو الحقيقة والكشف عن الأوهام، لا يولدان المعرفة والفهم والإدراك فحسب، بل إن الإنسان يتغير في هذه العملية، فتتفتح عيناه ويصحو ويرى العالم على حقيقته

ويتعلم كيف يستخدم طبقًا لذلك قواه الفكرية والوجدانية ويطورها) (ما وراء الأوهام، إريك فروم)

(أننا في حاجة إلى إنسان جديد يخلف وراءه الحدود الضيقة ويحس بكل كائن إنساني جارًا، ويحس أن العالم وطنه)

(أنني حين أعرف نفسي حق المعرفة، أدرك في مثل هذه الأحوال أنني لا أختلف عن أي شخص آخر، وأنني الطفل والقديس والإثم والأمل واليأس واكتشف أن ما هو مختلف ليس إلا أنماط التفكير والعادات والظاهر على أن الجوهر واحد)

يتفق فروم مع آدلر في أن الصراع بين الفرد والمجتمع نتاج تأسيس مشوه للفرد والبناء الاجتماعي، إلا أنه في حال الفهم الصحيح والإدراك لكلية الوجود والإنسانية لن يكون هناك صراع.

(كلما اشتد التعارض بين أهداف المجتمع والأهداف الإنسانية الحقة، اشتد تمزق الفرد) (إريك فروم، ما وراء الأوهام)

(كلما زاد المجتمع إنسانية، قل احتياج الإنسان للفرد إلى الاختيار بين العزل عن المجتمع أو العزل عن الإنسانية) (إريك فروم، ما وراء الأوهام)

(وكل ذلك يتوقف على الاعتناء بمثل هذه الأحاسيس في وسط حضاري)

الفردي والاجتماعي لا تعارض بينهما طالما صار النمو الفردي محور البناء الاجتماعي، ولذلك تتأسس رؤية فروم الإصلاحية على اكتشاف الإنسان لذاته أولًا ومن ثم تفهم ذات الآخر (في الحقيقة يجب أن أكون ذاتي حين أريد أن أرى الآخر وأنى لي أن أفهم خوفه وكآبته وانفراده وأمله وحبه إن لم أحس لم أحس أنا بخوفي وكآبتي وانفرادي وأملي وحبي) (الاهتمام بالفرد لا يمكن فصله عن المجتمع الذي أعيش فيه)

يعتقد فروم أن التملك وما ينتجه من سلطات تملكية لهما الأثر الأكبر في تزييف وعي الإنسان وتشويه صورة ذاته وإنتاج علاقات مشوهة بين مخلوقات خائفة لا تشعر بالأمن وتشعر أنها مرصودة في كل ما يتعلق بنموها وذاتيتها. (كما أن السلطة تتحكم بالحياة والموت، بالحرية والعبودية فإنها لم تؤثر فينا تأثيرًا جسديًّا فحسب بل عقليًّا أيضًا)

وبالطبع تنسجم تعاليم الإله مع تعاليم كل الأقطاب السلطوية في المجتمع التملكي سواء تعلق الأمر بالطبقة المسيطرة أو النظام الحاكم أو الرجل الذكر. في حين تتحول الطاعة والصبر والخضوع والرضا إلى فضائل للمرأة والفقراء والمهمشين في البناء الاجتماعي التملكي. وكل ذلك مع مرور الوقت يشكل اللا شعور الفردي والاجتماعي بل ويحدد اللغة وما ينبغي وما لا ينبغي التفكير فيه.

يرتبط تشويه الإنسان بفساد السياق التملكي ورغم أهمية محاولات البعض للتحرر الفردي الداخلي مهما كانت عتمة السياق إلا أن ذلك يحدث على مستوى نخبوي ضعيف ويعاني أفراده من مشاكل التكيف مع السياق. لذلك فإن وجود سياق إنساني، صحي، ربما يكون السبيل الأضمن لإنسان حر النمو، نشيط، متعاون، منسجم مع الكل الاجتماعي.

في كتابه الإنسان بين الظاهر والكامن، عرض الفيلسوف إريك فروم تصوره لمجتمع لا مركزي على مستوى الدولة عمومًا ومؤسسات الأسرة التعليم والعمل، حيث يترك لكل فرد مساحة لاكتشاف ذاته وما يتناسب مع كيمياء شخصيته وميوله في كل تفاصيل حياته داخل بيت الأسرة والمدرسة واختياره لعمل يتناسب مع نشاطه وميله الأصيل. وذلك ما يعني به إخضاع النشاط الاقتصادي والاجتماعي للتطور الإنساني، بطريقة تجعل الإنسان فعالًا وحرًا دون ضغط أو تهديد أو تشريط أو ابتزاز. يرتبط ذلك بأساس مهم للغاية وهو أن الكائنات البشرية يجب أن لا تعيش في حالة من الفقر الذي يهدد آدميتهم. لذلك يؤكد فروم أن كل إنسان بغض النظر عما إذا كان يعمل أو لا يعمل، له الحق في المأوى والمأكل الذي لا يجعله يموت جوعًا. الحياة بالنسبة للإنسان حق لا ينبغي مساومته عليه مهما كانت المبررات، ومهما كانت الشعارات. ويضيف فروم أن هذه حقوق جوهرية للإنسان بغض

النظر عن كونه يقوم بالواجب تجاه المجتمع أم لا (إنه حق نعترف به للحيوانات الأليفة، وإن كنا لم تعترف به بعد لإخواننا في البشرية).

في حالة انتفاء الحاجة الاقتصادية القاهرة، تنتفي بالضرورة العلاقات الاستغلالية والتملكية، التملك مؤسس على ابتزاز حاجات الأضعف اقتصاديًّا وسلطويًّا واجتماعيًّا. وبالإمكان انبثاق علاقات إنسانية مؤسسة على التعاون والتكافؤ وفتح المجال لنمو الآخر دون كبته وقمعه واستغلاله.

يرتبط بذلك أيضًا التوزيع العادل للثروات الوطنية وعدم السماح، بخلق هذه الفجوة الهائلة بين الطبقات وبين الدول الغنية والدول الفقيرة والتي سمحت بتأسيس علاقات الاستغلال والسطوة.

المجتمع التعاوني، لن يكون بحاجة لمؤسسات تزييف الوعي وغسيل الدماغ من أجل تسهيل الاستغلال والترويض، بل العكس من الضروري أن تعمل كل مؤسساته التربوية والإعلامية من أجل يقظة الوعي الإنساني ونشر الروح الإنسانية وإتاحة الفرصة للجميع للعيش بفعالية وانطلاق.

في النهاية يؤكد فروم على أهمية تحرير النساء من هيمنة الرجال (إن ممارسة السيطرة على المستضعفين، هي جوهر الهيمنة

الرجالية اليوم، كما هي جوهر الهيمنة على الأمم غير الصناعية وعلى الأطفال والمراهقين)

بالتأكيد لا يمكن فصل حلقات التملك عن بعضها بعض، فهي كالدوائر المستطرقة، السيطرة الذكورية على المرأة والأبناء، حلقة وصل لسيطرة الرأسمالي على العمال وأيضًا لسيطرة النخبة السياسية والاقتصادية النافذة على المواطن المقهور والفقير. والعمل ينبغي أن ينشط على جميع المستويات والحلقات.

❊❊❊

خاتمة

يفكك الكتاب فكرة التملك وارتباطه بغايات الإنسان المتمثلة في التغلب على مخاوفه الوجودية، لذا فالأمر يتعلق بالوعي اليقظ لخطورة التملك وأثره المشوه للإنسان والأسرة والمجتمع والدولة. التملك يرتبط بتاريخ الإنسان منذ عرف العمل الإنساني وفكرة استغلال الآخر، لذا فقد تحول إلى ما يقارب الغريزة المكتسبة، لذا فالعمل ضده ربما يشبه العمل ضد الظواهر الطبيعية ذاتها كالبراكين والزلازل. التحول بالمجتمع إلى مجتمع غير تملكي، هدف غير واقعي في حال الفهم العميق لما تبلورت عليه الذات والمجتمع عبر مراحل تاريخية طويلة. إلا أنه من الممكن سلوكيًّا وإداريًّا محاولة تحسين الوضع وتخفيف حدة الخوف ومن ثم النرجسية والارتياب في الآخر، عبر إستراتيجيات أكثر إنسانية وتعاونية. ولا غنى عن مؤسسات وطنية وقانونية في غاية القوة والرصانة لتعيد للدولة كيانها المؤسس على المشاركة والمساواة أمام القانون وعدالة توزيع المناصب والثروات والحؤول دون استغلال عائلات وأفراد

بالسلطات والثروات الوطنية. تأسيس مجتمع مدني قوي ويستمد قوته من دولة مؤسسات وقانون. أدرك أن الحديث والإنشاء سهل ولكن التنفيذ صعب كما هي المعاناة. الأمر يحتاج إلى ثقافة نفسية واجتماعية وقانونية عميقة لكل إنسان ولن يتأتي ذلك سوى بتعليم منفتح عصري يحرص على تعليم الإنسان كيفية مواجهة مصيره عبر كفاحه وعقله وجهده الخاص وليس بانتظار معونة أم أو أب أو زعيم. دفع الإنسان للحصول على حريته واستقلاله والاستفادة القصوى من ميوله ونشاطاته وحريته في اختيار ما يتناسب مع طاقته الكلية وميله، يجب أن يكون الهدف أمام كل أب حقيقي وأم حقيقية ومعلم وأي سلطة تستمد قوتها من الإنسان.

فلندفع الآخر إلى الحرية والاستقلال والاعتماد على الذات إذا كنا حقًّا نحب ونريد أن نرافقه.

من الضروري بمكان أيضًا حضور أرضية قانونية صلبة تتجاوز قدسية أدوار الأب والأم وتتعامل معهم كمواطنين قابلين للعقاب في حال إساءة استغلال الأبناء وتسخيرهم لميول سلطوية، تملكية وعدوانية في أحوال أخرى.

تم في ٥ أغسطس ٢٠٢٤

البتانون

قائمة المراجع

١ الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، د. حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت سبتمبر ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى.

٢- التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، د.مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي ٢٠٠٥م، الطبعة التاسعة

٣ - جوهر الإنسان، إيريش فروم، ترجمة: سلام خيربك، دار الحوار للنشر الطبعة الأولى ٢٠١١م

٤- الإنسان بين الجوهر والمظهر، إيريك فروم، ترجمة سعد زهران، عالم المعرفة ١٤٠

٥- سيكولوحيتك في الحياة، كيف تحياها؟ تأليف الفريد آدلر، تعريب أ. د: عبد العلي الجسماني، الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى ١٩٩٦م

٦- معنى الحياة، تأليف: الفريد آدلر، ترجمة وتقديم: عادل نجيب بشرى، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م

٧- ما وراء الأوهام، إيريش فروم، ترجمة: صلاح حاتم، دار الحوار للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٨- أسس لإعادة تشكيل البناء الاجتماعي، تأليف: برتراند راسل، ترجمة: د. إبراهيم يوسف النجار، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٨٧م

٩- دراسان في تطور الرأسمالية، تأليف موريس دوب، تعريب: رؤوف عباس حامد

١٠- مدخل إلى نظريات الشخصية، تأليف: د. باربارا إنجلر، ترجمة: د. فهد بن عبد الله دليم، دار الحارثي للطباعة والنشر، الطائف ١٩٩١م

١١- الحب السائل - عن هشاشة الروابط الإنسانية، زيجمونت باومان، ترجمة: حجاج ابو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى بيروت، ٢٠١٦م

١٢ - انتصارات التحليل النفسي، بيير داكو، ترجمة: وحيد أسعد، الطبعة الثانية، الشركة المتحدة التوزيع، سوريا، دمشق

١٣- مستقبل الثقافة في مصر، د. طه حسين، النسخة الصادرة عن مؤسسة هنداوي ٢٠١٤م

❊ ❊ ❊

المحتويات

تمهيد..... ٩

عن الكتاب..... ١٧

الفصل الأول التملك والأسرة والمجتمع (سيرة إنسانية مشوهة)..... ٢١

١- خصائص الأسرة الأبوية التملكية وجذورها التاريخية والنفسية ٢٣

٢- أب /ابن... حاكم /مواطن ٣٤

٣- التملك والمجتمع. ٣٧

الفصل الثاني التملك والمرأة والطفل ٤٣

تمهيد: ٤٥

١- الأمومة المشوهة ٥٤

٢- تزييف وعي المرأة. ٦١

٣- الرجل المشوه و المرأة المشوهة في المجتمع التملكي. ٦٨

الفصل الثالث التملك وعقدة النقص الإنسانية ٧٩

تمهيد ٨١

١- تاريخية التملك وعقدة النقص لدى الإنسان.. ..... ٨٧

٢- من سطوة الطبيعة إلى سطوة الإنسان. ٩٧

الفصل الرابع التملك وتراكم العدوانية..... ١٠٣

تمهيد ١٠٥

١- "الأخوة الأعداء" ١١٠

٢- محاولة للبحث عن جذور العنف في المجتمع المصري المعاصر. ١١٤
الفصل الخامس التملك والانشطار ١٢١
١- الانشطار كآلية دفاعية ١٢٣
٢- التملك وأخلاق القناع. ١٣٠
الفصل السادس التملك وتزييف الانفعالات والوعي ١٣٣
١- الانفعالات في السياق التملكي. ١٣٥
٢- السياق التملكي وتزييف الوعي. ١٣٩
٣- الاغتراب كأثر مباشر لتزييف الوعي والانفعالات. ١٤٥
الفصل السابع نحو التحرر الفردي الداخلي ١٥٥
الفصل الثامن اتجاه أفضل للحركة ١٧١
الفصل التاسع رؤى إصلاحية ١٨٧
١- برتراند راسل، وإعادة تأسيس البناء الاجتماعي ١٨٩
٢- التعاون ومعنى الحياة، رؤية الفريد آدلر. ١٩٧
٣- التعليم ومستقبل الثقافة في مصر ، د. طه حسين. ٢١٣
٤- رؤية إريك فروم الإصلاحية.. ..... ٢٢١
خاتمة ٢٣١
قائمة المراجع ٢٣٣
المحتويات..... ٢٣٥

❊ ❊ ❊

سيكولوجية التملك

إنسان مجتمع الخوف يشعر دائمًا أن هناك من يترصده ويراقبه ويعد عليه خطواته، منتظرًا أي هفوة للقضاء عليه ومعاقبته، لذلك يشعر أنه محور الكون. لديه شعور دائم أن هناك من يضطهده، لذلك فهو دائم التشكيك في الآخرين، دائم كتم انفعالاته، خاصة ما يتعلق منها بالعدوانية تجاه الأعلى مرتبة، مسقطًا إياها على من يعتقد أنهم الأدنى منه مرتبة وطبقة وعمرًا ونوعًا.

إنسان مجتمع الخوف يؤمن أن هناك دائمًا من يتآمر ضده في الداخل والخارج، حتى لو كانوا ركاب قطار عام لا يعرفونه شخصيًا. لقد جعله الأب والزعيم وشيخ القبيلة وربما أمه المتماهية مع هؤلاء في شك دائم أن يكون على خطأ ولذا لا يدري من أين تأتيه الضربة. لقد فقد القدرة على التمييز بين الصراع الوجودي الطبيعي بين الكائنات وبين كونه محور الكون والكل يتآمر عليه.

إنسان مجتمع الخوف علاقاته مشوهة على كل المستويات، الأسرية والعاطفية والسياسية؛ لأنها علاقات مؤسسة على الخوف.

WWW.BOOKCLOUDME.COM
INFO@BOOKCLOUDME.COM
/BOOKCLOUDME
بوكلود